فقه الدعوة المتعلق بدعوة المنافق
من خلال كتاب التفسير المنير
للدكتور وهبة الزحيلي رحمه الله تعالى
(دراسة استقرائية)

إعداد

الباحث/ ظافر بن محمد بن عبدالله الشهري

باحث دكتوراة في العقيدة والدعوة قسم الشريعة والدراسات الإسلامية كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة الملك عبدالعزيز - السعودية

أ.د/ سعيد بن أحمد بن علي الأفندي

الأستاذ بقسم الشريعة والدراسات الإسلامية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة الملك عبدالعزيز بجدة، المملكة العربية السعودية

فقه الدعوة المتعلق بدعوة المنافق من خلال كتاب التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي رحمه الله (دراسة استقرائية)

ظافر بن محمد بن عبدالله الشهري

قسم الشريعة والدراسات الإسلامية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، السعودية.

البريد الالكتروني: zmalsh@gmail.com

سعيد بن أحمد بن علي الأفندي

قسم الشريعة والدراسات الإسلامية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، السعودية.

البريد الالكتروني: salafandi@kau.edu.sa

الملخص :

قام الباحث بدراسة المضامين الدعوية المتعلقة بدعوة المنافق من خلال ما ألفه الدكتور وهبة الزحيلي في كتابه الموسوعي التفسير المنير، وقد ركز الباحث على ثلاث مباحث وخاتمة، اشتمل المبحث الأول على مفهوم النفاق وأنواعه وهل للمنافق توبة كتمهيد للداعية وأن باب التوبة مفتوح فالدعوة تشمله وإن كانت توبته يشترط فيها ما لا يشترط في الكافر لعظيم جرمه، ثم المبحث الثاني والذي اشتمل على تمهيد بسيط في الحكمة من عدم تسمية المنافقين في كتاب الله والتركيز على صفاتهم، ثم تطرق الباحث إلى ذكر أهم معالم إعراض المنافقين مما جاء في كتاب الله وذلك بذكر سوء أدبهم مع ربهم وانحطاط أخلاقهم مع نبيهم ومع المسلمين وموقفهم من الشريعة والأحكام الإسلامية وذكر واقعهم الحقيقي من العبادات الجماعية كالصلاة والجهاد وأخلاقهم في تعاملاتهم، وبالمقابل ولاؤهم لأعداء المسلمين ومناصرتهم لهم على المسلمين متى ما حانت الفرصة؛ حتى يتصور الداعية مدى إعراضهم وخطرهم، ثم بعد ذلك يأتي ذكر أهم معالم دعوتهم وكيفية التعامل معهم وذلك من خلال وسائل الترغيب والترهيب وبيان الموقف الشرعي في معاملتهم وتعامل ولي الأمر معهم من حيث استبعادهم من الجهاد وعدم الصلاة عليهم وتحذير الناس من صفاتهم تحجيماً لانتشارهم وصرفهم عن الناس، ثم ختم البحث بذكر أهم النتائج والتوصيات.

الكلمات المفتاحية: الدعوة، المنافق، التفسير، الزحيلي، المعالم

The jurisprudence of advocacy related to the call of the hypocrite through the enlightening interpretation book By Dr. Wahba Al-Zuhaili, may God Almighty have mercy on him (Inductive study)

Dhafer bin Muhammad bin Abdullah Al-Shehri
Department of Sharia and Islamic Studies, College of Arts and Humanities,
King Abdul Aziz University, Jeddah, Saudi Arabia
Email: zmalsh@gmail.com
Saeed bin Ahmed bin Ali Al-Afandi
Department of Sharia and Islamic Studies, College of Arts and Humanities
King Abdul Aziz University, Jeddah, Saudi Arabia
Email: salafandi@kau.edu.sa

Abstract :
God (Inductive Study)
The researcher studied the preaching contents related to the call of the hypocrite through what Dr. Wahba Al-Zuhaili wrote in his encyclopedic book, The Enlightening Interpretation. The researcher focused on three sections and a conclusion. The first section included the concept of hypocrisy and its types. Does the hypocrite have repentance as a prelude to the preacher, and that the door to repentance is open, so the call includes him, even if his repentance is It stipulates what is not required of an infidel due to the greatness of his crime. Then the second section, which included a simple introduction into the wisdom of not naming hypocrites in the Book of God and focusing on their characteristics. Then the researcher touched on mentioning the most important features of the hypocrites' turning away from what was mentioned in the Book of God by mentioning their bad manners along with Their Lord, the decline of their morals with their Prophet and with the Muslims, their position on Sharia and Islamic rulings, and mentioning their true reality of worship.

Keywords: Advocacy, Hypocrite, Interpretation, Al-Zuhayli, Landmarks

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، وصلاةً وسلاماً على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، ومن استن بسنته وسار على هديه إلى يوم الدين أما بعد:

إن من أخطر ما يواجه الداعية في دعوته هو العدو الداخلي في المجتمع المسلم ، هذا العدو المتمثل بفئة المنافقين ، الذين تكمن خطورتهم في كونهم يتسترون برداء الإسلام ، ليقوا أنفسهم من أن يعاملوا معاملة الكافرين المقررة في الشريعة الإسلامية ، وهم في الوقت ذاته يُلبسون على المسلمين حقيقة ما هم عليه من الكفر ؛ ليكونوا داخل المجتمع المسلم نواة فتن تحاك ضد المسلمين ، وكذلك كان حالهم مع صفوة الخلق في زمن النبي ﷺ وصحابته الكرام.

فكان لزاماً على كل داعية معرفة صفاتهم وطرائقهم وسبل التعامل معهم ، على وفق ما جاء في كتاب الله ﷻ وسنة النبي ﷺ وموقف السلف الصالح منهم، وكذلك ينبغي على الداعية توعية الناس بخطرهم ، وأنهم موجودون بين ظهراني المجتمعات الإسلامية.

مشكلة البحث :

بالنظر إلى أهمية الدعوة إلى الله، وكثرة الأدلة من الكتاب والسنة في فضلها، إلا أن العمل الدعوي الميداني يتطلب دراسة منهجية، وفقهاً دعوياً يضبط العمل حتى لا تكون نتائجه عكسية، ومآلاته وخيمة تضر بالدعوة ولا تنفع.

وأول خطوة تحمي الدعوة إلى الله من الوقوع في الأخطاء بإذن الله هي الرجوع إلى الكتاب والسنة، وجعلهما المرجعية الدائمة للداعية في كل ما يأتي ويذر. ومما لا يخفى أن تفسير كتاب الله – عز وجل – من أهم العلوم التي ينبغي للداعية المتخصص العناية بها، لكونه السبيل لمعرفة ما

في القرآن الكريم من معانٍ وأحكام، ومعرفة الفقه الدعوي من خلال تفسير العلماء الراسخين في العلم، ومن هذه التفاسير تفسير الدكتور وهبة الزحيلي –رحمه الله– المسمى [التفسير المنير]، وهو يعتبر من كتب التفسير التي صنفت في هذا العصر مما يجعله قريباً في معانيه لما يحتاجه الداعية، سهلاً في ألفاظه بحيث تكون مفهومة وواضحة لأكبر قدر ممكن من الدعاة.

وسوف تجيب هذه الدراسة على أهم التساؤلات والتي منها:

١ .ما هو النفاق وما أنواعه؟

٢ .هل للمنافق توبة؟

٣ .ما معالم إعراض المنافقين؟

٤ .ما معالم دعوة المنافقين وكيف يتم التعامل معهم ؟

أهداف البحث:

١. بيان مفهوم النفاق وأنواعه.

٢. بيان موقف الشرع من توبة المنافق.

٣. إبراز معالم إعراض المنافقين من خلال ما ورد في كتاب التفسير المنير.

٤. بيان الفقه الدعوي المتعلق بدعوة المنافقين وكيفية التعامل معهم من خلال كتاب التفسير المنير.

أهمية البحث:

تبرز أهمية هذا البحث في جوانب عديدة ، منها على سبيل المثال:

أولاً: أن هذا الموضوع يمس اهتمام جميع الدعاة إلى الله ممن يمارسون العمل الدعوي، فالداعية إلى الله يأنس ويستجمع انتباهه لكل ما يساعده في دعوته ، ومنها كثرة القراءة في هذا المجال.

ثانياً: أن الداعية مأمور بأن يدعو إلى الله على بصيرة، ولن يتحقق ذلك إلا بالعلم بالكتاب والسنة التي ينطلق منهما في دعوته.

ثالثاً: إرشاد الدعاة الاستفادة من كتب التفسير المعينة على فهم مراد الله، وتدبر كلامه، والعمل به، حتى يكون الداعية مستحضراً ومستظهراً الشواهد القرآنية في دعوته.

رابعاً: الحاجة إلى تقديم دراسة دعوية تكون مادتها تفسير أحد العلماء الأعلام المعاصرين، ممن عاصر زماننا ورأى ما يحدث في المجتمعات المعاصرة، فتكون كلماته ملامسة للواقع الذي يعيشه الدعاة إلى الله.

خامساً: إبراز مفهوم الفقه الدعوي ضمن مجالات التفسير المتعددة التي تناولها علماء التفسير قديماً وحديثاً كالتفاسير الفقهية والبلاغية والموضوعية وغيرها.

منهج البحث:

سيكون البحث بمشيئة الله قائم على المنهج الاستقرائي؛ وذلك باستقراء وحصر الشواهد والمضامين الدعوية المتعلقة بدعوة المنافق من خلال كتاب التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي.

وستكون الطريقة المتبعة في البحث على النحو التالي:

١- عَزْو الآيات القرآنية إلى مواضعها، بكتابة رقم الآية واسم السورة في المتن حتى لا تكثر الهوامش.

٢- تخريج الأحاديث الواردة في البحث، فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت به، وإلا خرجته من كتب الحديث والآثار المعتمدة في ذلك، مع بيان كلام العلماء عليه صحة وضعفا.

٣- توثيق النقولات إلى مصادرها الأصلية، إلا إذا كان القول منقولاً عن مصدر مفقود، أو تعذر الوصول إليه فأجتهد في توثيقه من المصادر الأخرى.

٤- التعريف بالكلمات والمصطلحات الغريبة الواردة بالبحث وتشكيلها إن وجد.

٥- ترتيب المصادر والمراجع ترتيباً هجائياً بحسب اسم الكتاب.

حدود البحث:

سيكون ميدان البحث بمشيئة الله مقتصراً على ثلاثة محاور:

١- المواضيع الدعوية المتعلقة بدعوة المنافق.

٢- من خلال الإنتاج العلمي للدكتور وهبة الزحيلي -رحمه الله-.

٣- من خلال كتابه التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج.

هيكل البحث:

يحتوي هذا البحث على مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة:

المبحث الأول : مفهوم النفاق ، أنواعه، وتوبة المنافق .

المبحث الثاني : معالم إعراض المنافقين .

المبحث الثالث : معالم دعوة المنافقين وكيفية التعامل معهم .

الخاتمة: وتتضمن أهم نتائج البحث، والتوصيات التي توصل لها الباحث.

المبحث الأول

مفهوم النفاق ، أنواعه، توبة المنافق

أولاً: مفهوم النفاق لغة واصطلاحاً :

مفهوم النفاق في اللغة: «هو اسم إسلامي، لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به، وهو الذي يستر كفره ويظهر إيمانه، وإن كان أصله في اللغة معروفا. يقال: نافق ينافق منافقة ونفاقا، وهو مأخوذ من النافقاء: أحد جحرة اليربوع، إذا طلب من واحد هرب إلى الآخر، وخرج منه»[(١)] .

النفاق في الاصطلاح: والمعنى الاصطلاحي للنفاق لا يخرج عن المعنى اللغوي، «والنفاق اسم من الأسماء الشرعية التي وضعها الشرع، لم تكن معروفة بمعناها الاصطلاحي هذا قبل الإسلام، وهو الذي يستر كفره ويظهر إسلامه»[(٢)] .

وسئل حذيفة ﷺ وقد كان أمين سر النبي ﷺ وهو أعلم الصحابة بالمنافقين: ما المنافق؟ قال: «الذي يصف الإسلام ولا يعمل به»[(٣)] .

والنفاق كما جاء في التفسير المنير: «اسم شرعي جعل سمة لمن يظهر الإيمان ويسر الكفر»[(٤)]، وفي موضع آخر: «المنافق: هو من أظهر الإيمان وأبطن الكفر»[(٥)] .

من خلال ما سبق تتضح العلاقة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي في كون أن النفاق هو إبطان ما يخالف الظاهر، بل فيه دلالة

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٥/ ٩٨).

(٢) لسان العرب لابن منظور(٣٥٩/١٠).

(٣) الزهد: الرؤاسي، أبو سفيان وكيع بن الجراح بن عبيد بن رؤاس (ت:١٩٧هـ)، تحقيق: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ط١، ١٤٠٤هـ (ص٧٨٦).

(٤) التفسير المنير للزحيلي (١/ ٨٠).

(٥) المرجع نفسه (٣٣١/٥).

على ارتباط النفاق بصفات مصاحبة كالخداع والتحايل إضافة إلى صفة الكذب مع الجبن، ولا شك أن هذا دليل على بشاعة النفاق.

ثانياً : أنواع النفاق :

المتأمل في الأحاديث الوارد فيها ذكر النفاق والمنافقين يجد أن النبي ﷺ ذكر أن النفاق ليس على ضرب واحد.

ففي حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:(أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا، إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ)[(١)].

ففي قوله ﷺ:"كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا"، وقوله:"وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ" ما يؤكد اختلاف أنواع النفاق، وتفاوت درجاته.

وقد قسم العلماء [(٢)] النفاق إلى نوعين ، هما :

أ- النفاق الاعتقادي أو الأكبر، **ب** - النفاق العملي أو الأصغر.

من هنا فإنه ينبغي التفريق بين هذين النوعين ؛ فالمسلم الذي يحب الله ورسوله، لكنه اتصف بصفة أو أكثر من صفات المنافقين لا يجوز البتة مساواته في الحكم أو المعاملة بمن أبطن الكفر، وعادى الله ورسوله، فقد جاء في الصحيحين من حديث عتبان -في حديث طويل-: فقال قائل منهم: أين مالك بن الدخشن؟ فقال بعضهم: ذلك منافق، لا يحب الله ورسوله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تقل، ألا تراه قال لا إله إلا الله يريد بذلك وجه الله)، قال: الله ورسوله أعلم، قال: قلنا فإنا نرى وجهه

---

(١) رواه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، (٢١/١) ح(٣٤).

(٢) **ينظر: جامع العلوم والحكم، للإمام ابن رجب الحنبلي (٤٨١/٢)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للإمام العيني (٢١٧/١)، فيض القدير، للإمام المناوي (٤٦٣/١).**

ونصيحته إلى المنافقين فقال: (فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله)[1] .

قال ابن رجب في فتح الباري: «وفي قول النبي ﷺ : (لا تقل ذلك) نهيٌ أن يُرمى أحد بالنفاق لقرائن تظهر عليه، وقد كان النبي ﷺ يجري على المنافقين أحكام المسلمين في الظاهر، مع علمه بنفاق بعضهم، فكيف بمسلم يرمي بذلك بمجرد قرينة؟»[2] .

ولما كان المنافقون يعيشون في وسط المجتمع المسلم، فهم جزء لا يتجزأ منه ، ومن ثم فهم يختلفون عمن كان غريباً عن مجتمع المسلمين وظاهر في عدائه لهم ، لذا كان لا بد من التعامل معهم بحكمة ، والتريث في إصدار حكم النفاق في حق من يشك في نفاقه .

والكلام عن المنافق في هذا المبحث سوف يتناول من كان نفاقه في باب الاعتقاد ، ممن أظهر الإسلام وأبطن الكفر، أما من كان نفاقه متعلقاً بالجانب العملي كحديث: (آية المنافق ثلاث..) فهذا مرتبط بالمسلمين العصاة وليسوا محلاً لبحثنا هذا.

ويزداد أمر التعرف على المنافقين **أهمية وخطورة** إذا كان بين المسلم عمومًا، والداعية إلى الله تعالى خصوصًا نوع معاشرة مع المنافقين، ومن ثم فإنه لا بد أن يكون الحكم عليهم مبنياً على نصوصٍ واردة في الوحيين الشريفين أو أحدهما .

وهذا ابن قيم الجوزية يذكر في كتابه الماتع (مدارج السالكين) كلاماً بليغاً في مدى أثر المنافقين وخطرهم، فيقول: «وقد هتك الله سبحانه

(١) رواه البخاري: كتاب الأطعمة، باب الخزيرة، (٢٠٦٣/٥) ح(٥٠٨٦).

(٢) فتح الباري: ابن رجب، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (ت ٧٩٥ هـ)، تحقيق: محمود بن شعبان ومجموعة من العلماء، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية، ط١، ١٤١٧هـ، (٣/ ١٨٨).

أستار المنافقين، وكشف أسرارهم في القرآن، وجلى لعباده أمورهم ليكونوا منها ومن أهلها على حذر، وذكر طوائف العالم الثلاثة في أول سورة البقرة: المؤمنين، والكفار، والمنافقين. فذكر في المؤمنين أربع آيات، وفي الكفار آيتين، وفي المنافقين ثلاث عشرة آية. لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم، وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله، فإن بلية الإسلام بهم شديدة جدا، لأنهم منسوبون إليه، وإلى نصرته وموالاته، وهم أعداؤه في الحقيقة، يخرجون عداوته في كل قالب، يظن الجاهل أنه علم وإصلاح وهو غاية الجهل والإفساد.

فلله كم من معقل للإسلام قد هدموه؟! وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه؟! وكم من علم له قد طمسوه؟! وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه؟! وكم ضربوا بمعاول الشبه في أصول غراسه ليقلعوها؟! وكم عموا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها؟! فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبلية، ولا يزال يطرقه من شبههم سرية بعد سرية، ويزعمون أنهم بذلك مصلحون! ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ١٢﴾ [البقرة: ١٢]»[(١)] .

واستمر يستطرد في ذكر مساوئهم ومخازيهم مستلهماً التعبيرات القرآنية في كلامه عنهم لبلاغتها وقوة معانيها.

وقال الدكتور الزحيلي في التفسير المنير: «إن النفاق مرض خطير، وإن المنافقين شوكة مؤذية تطعن المجتمع من الداخل، وكان المتبادر إلى الذهن في تقديرنا أن تستأصل شأفة النفاق والمنافقين، حتى ترتاح الدولة منهم، وكذلك تفعل الدول الآن، إلا أن للوحي الإلهي والتشريع السماوي حكمة عميقة الأثر، بعيدة المدى، تنتظر أحداث المستقبل، ليظهر للناس قصور علمهم أمام سعة العلم الإلهي، فكثيرا ما لاقى النّبي ﷺ الأذى من

(١) مدارج السالكين: ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين (ت:٧٥١هـ)، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، تخريج: سراج منير محمد منير، دار عطاءات العلم، الرياض، ط٢، ١٤٤١هـ، (١/٥٣٥-٥٣٦).

المنافقين ولكنه انتصر في النهاية عليهم، ولعل ذلك من أصدق البراهين التاريخية على أن النفاق واليهودية شيئان متلازمان: لأنه ينشأ عن جبن حقيقي ولؤم طبعي، فالمنافق يلتوي مع الناس في أقواله وأفعاله، ويظهر النعومة، ولكنها السّم الزعاف في الدسم»[1] .

ولذلك يكمن الخطر في أن المنافق يعيش بين الناس ويخالطهم ويساكنهم ولكنه يحيك المؤامرات تجاههم سعياً منه في تغيير قيمهم وسلوكهم وإفساد دينهم، وفي نفس الوقت يكون عيناً لأعدائهم وسفيراً لهم، بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حذر أمته منه كما في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (إن أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان)[2]. وفي هذا الحديث دلالة على أن الناس تحكم بالظاهر والله يتولى السرائر ولكن علماء الأمة قد آتاهم الله نباهة وفطنة فلا يغترون بمعسول الكلام ولا تنميقه، فدورهم كبير في فضح مؤامرات المنافقين وخططهم دون التعرض لأشخاصهم اقتداءً بالمنهج القرآني الكريم، وتأسياً بنبي الأمة صلى الله عليه وسلم وكيف كان يعاملهم.

ثالثاً : توبة المنافق:

إن الحديث عن قبول توبة المنافق تكمن أهميته في كون أفعاله التي ترتبط بباطنه متعلقة بمسألة الردة عن الإسلام ، فهي أفعال كفرية كما سيأتي معنا في ذكر أحوالهم تجاه الله ورسوله وآياته وشرعه، وقد تطرق إليها الدكتور الزحيلي بكلام مقل غير مخل، فقال عند قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ٧٣

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، الزحيلي، وهبة بن مصطفى (ت:١٤٣٦هـ)، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤١١هـ، (٨١/١).

(٢) رواه الإمام أحمد: مسند عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، (٢٢/١) ح(١٤٣) تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي.

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ٧٤﴾ [التوبة: ٧٣-٧٤]، حيث **قال الزحيلي** في عرضه لمسألة توبة المنافق : «أرشد قوله: (فإن يتوبوا يك خيرا لهم) على توبة الكافر الذي يسر الكفر، ويظهر الإيمان، وهو الذي يسميه الفقهاء: الزنديق. وقد اختلف العلماء في شأن توبته، فقال الشافعي والجمهور: تقبل توبته، وقال مالك: توبة الزنديق لا تعرف لأنه كان يظهر الإيمان ويسر الكفر، ولا يعلم إيمانه إلا بقوله. فإذا عثر عليه وقال: تبت، لم يقبل قوله، وإذا جاءنا تائبا من قبل نفسه قبل أن يعثر عليه، قبلت توبته. وهو المراد بالآية»[1] . وهذا الكلام في إجراء الأحكام الشرعية عليه في الدنيا.

أما قبول توبته عند الله فالأدلة الشرعية صريحة في قبولها ، والحث عليها كما قال سبحانه في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ١٤٥ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ١٤٦﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦] .

والأخذ بأيدي العباد إلى التوبة وظيفة الداعية إلى الله تعالى ، حيث يسعى جاهداً لدعوتهم إلى التوبة الصادقة النصوح ، ويجتهد على أن تكون توبتهم رجاء مغفرة الله وعفوه ، لا خوفاً من العقاب الدنيوي واتقاءً له .

ولقبول توبة المنافق أربعة شروط مقررة في الكتاب المبين ، يقول الزحيلي : «شرط الله تعالى لقبول توبة المنافقين توبة صحيحة أربعة شروط في قوله: إلا الذين تابوا وأصلحوا، واعتصموا بالله، وأخلصوا دينهم لله، وتلك

(١) التفسير المنير (١٠/ ٣١٧).

الشروط هي: الندم على الفعل السابق، والإصلاح أي الاجتهاد في فعل الأعمال الصالحة التي تغسل أدران النفاق، والاعتصام بالله أي الثقة به والتمسك بكتابه والاهتداء بهدي نبيه المصطفى، بقصد مرضاة الله»[1].

ثم ذكر الزحيلي كلاماً بين فيه عظم جرم المنافق مقارنة بالكافر ، فقال: «هذه شروط قبول توبة المنافق، أما الكافر فشرط توبته فقط هو الانتهاء عن الكفر كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]»[2]، فالمنافق مطالب بأربعة أمور كما سبق ذكره، أما الكافر فمطالب بأمر واحد ، وهذا دليل على خطورة أمر النفاق.

(١) التفسير المنير (٥/٣٣٠-٣٣١).
(٢) المرجع نفسه (٥/ ٣٣١).

المبحث الثاني
معالم إعراض المنافقين

إن المقصد من ذكر معالم إعراض المنافقين هو توصيف وتشخيص هذه الفئة، وإبراز أهم ما يميزهم؛ وفي ذلك تيسير على الداعية إلى الله من أجل معرفة مواضع ومكامن الخلل فيهم، بما يعينه على الأخذ بيدهم إلى طريق الهداية والخلاص من هذا الداء الذي تجذّر في نفوسهم، كذلك فإن معرفة مواضع الخلل عند المنافق فيه توعية للناس بخطرهم وعدم الاغترار بهم، ومن ثم تحجيم آذاهم للمسلمين ، ومنع توسعهم داخل المجتمع المسلم.

الحكمة في عدم تسمية المنافقين:

لقد جاء القرآن الكريم فاضحاً لصفات المنافقين وسماتهم، وكاشفاً لحيلهم ومخادعتهم، ومحذراً منهم أشد تحذير ، لكنه في الوقت ذاته لم يذكر اسم واحد منهم ، لأن الأسماء والشخوص تنتهي بموتها، أما ذكر الصفات ففيها التحذير الدائم للناس ، وبالتالي فإنها تكون كالعلامات الإرشادية على سائر الطريق حتى لا يتيه الناس عنها أو يغفلون ، يقول **الشيخ السعدي** عند قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ٦٤﴾ [التوبة: ٦٤] «كانت هذه السورة الكريمة تسمى "الفاضحة" لأنها بينت أسرار المنافقين، وهتكت أستارهم، فما زال الله يقول: ومنهم ومنهم، ويذكر أوصافهم، إلا أنه لم يعين أشخاصهم لفائدتين ، هما :

١- أن الله ستير يحب الستر على عباده. ٢-أن الذم على من اتصف بذلك الوصف من المنافقين، الذين توجه إليهم الخطاب وغيرهم إلى يوم القيامة، فكان ذكر الوصف أعم وأنسب، حتى خافوا غاية الخوف»[(١)].

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله (ت:١٣٧٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ. (ص٣٤٢).

يقول الدكتور سيف الحارثي: «وما ذهب إليه السعدي في غاية المناسبة، فهو متوافق مع عدل الشريعة، وحسن تعاملها حتى مع المخالف، وإعطاء الفرصة للمخطئ أن يقلع عن خطئه، فعدم التصريح بأسماء المنافقين يحمل هذه المعاني السامية كلها. كما أن في عدم التصريح بأسمائهم مراعاة لمشاعر من يخرج من أصلابهم من المؤمنين، وهذا فيه التنبه لعدم جرح مشاعر المؤمنين الذين حصل من آبائهم تقصير»[1] .

وتتجلى معالم إعراض المنافقين عن دعوة الحق في سوء أدبهم مع الله تعالى، وانحطاط أخلاقهم مع رسول الله ﷺ ، وسوء معاملتهم لعموم المسلمين ، وكذلك يتجلى إعراضهم عن دعوة الحق بولائهم لأعداء المسلمين ، وأخيراً يظهر إعراضهم عن الحق في عدم رضاهم بالتحاكم إلى شريعة الإسلام ؛ وهذا ما سوف يتم الحديث عنه من خلال المعالم التالية :

أولاً: سوء أدبهم مع الله ﷻ :

لقد كان حالهم في هذا أشبه بحال اليهود الذين وصلوا إلى أدنى دركات الانحطاط في إساءة أدبهم مع الله تعالى، ويتجلى سوء أدبهم في المخازي التالية التي سقطوا بها في تعاملهم مع الله ﷻ :

١) **المخادعة:** يقول الله سبحانه: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ٩﴾ [البقرة: ٩]، ويقول ﷻ : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، وهذا من جهلهم بربهم وعدم إدراك سعة علم الله وقوته وتدبيره، وكأنهم يتعاملون مع مخلوق مثلهم يمكن

(١) استنباطات الشيخ عبد الرحمن السعدي من القرآن الكريم عرض ودراسة للباحث سيف بن منصر الحارثي، وهي رسالة دكتوراة في القرآن الكريم وعلومه –كلية أصول الدين– جامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية، الرياض، إشراف د أحمد سعد محمد الخطيب، دار ابن حزم، ط١، ١٤٣٧هـ، (ص٥٢٦).

خداعه، وجهلوا أن الله تعالى استدرجهم فيما ظنوا أنهم يخادعونه ، وكان بهذا الاستدراج حتفهم .

يقول الزحيلي : «ونظرا لقصور عقولهم تصوروا أنهم يخدعون الله تعالى، وهو منزه عن ذلك، فإنه لا يخفى عليه شيء، وهذا دليل على أنهم لم يعرفوه، ولو عرفوه لعرفوا أنه لا يخدع، وليس خداعهم إلا وبالا عليهم، والله قادر على كشف أمرهم للمسلمين. ومع كل ذلك يأمر الله بإجراء أحكام الإسلام عليهم، كأنه يخادعهم، على سبيل المشاكلة والمحاكاة والمشابهة لفعلهم».

ويقول في الموضع الآخر: «يعتمد المنافق كالثعلب على المكر والخداع، وسرعان ما يتكشف أمره للناس، ولا يخفى على الله من فعله شيء منذ بدء نفاقه، فالمنافقون يخادعون الله لقلة علمهم وعقلهم، والله خادعهم- على سبيل المشاكلة اللفظية- أي أن الخداع من الله هو مجازاتهم على خداعهم أولياءه ورسله»[1] . ولا شك أن المنافق ما وصل إلى مرتبة الخداع إلا لكثرة تحايله واستمرائه الكذب والتلون حتى أصبح عادة في سلوكه، ولذلك فقد أخبر الله أنهم يخادعون حتى إخوانهم في الكفر الذين يحبونهم بل ويعتقدون ما يعتقدونه في الباطن فغيرهم من باب أولى، وهذا دليل تأصل طبع المخادعة، يقول الله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ١١ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ١٢﴾ [الحشر: ١١-١٢].

(١) التفسير المنير (٥/ ٣٣٢)

٢) **الاستهزاء بكلام الله:** قال الحق جل في علاه: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ١٢٤ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ١٢٥﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥]، هو دليل على عدم توقيرهم لكلام الله عز وجل، **يقول الزحيلي** : «بعد أن ذكر الله تعالى أنواعا من مخازي المنافقين وأعمالهم القبيحة ... ذكر هنا أنواعا أخرى أخطر مما سبق، وهي استهزاؤهم بالقرآن وتهربهم حين سماعه ؛ لأنه كلما نزلت سورة مشتملة على تبيان فضائحهم وعيوبهم تأذوا من سماعها، وكذلك كلما سمعوا سورة وإن لم يذكر فيها شيء عنهم، استهزءوا بها وطعنوا فيها، وأخذوا في التغامز والتضاحك على سبيل الطعن والهزء»[١] .

٣) **نسيان الله تعالى بترك الامتثال لأوامره سبحانه** : يقول الله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ٦٧﴾ [التوبة: ٦٧]، في هذه الآية إشارة إلى أن قلوب المنافقين خاوية من كل ما يذكرهم بطاعة الله والامتثال لأوامره ، **يقول الزحيلي** : «تركوا طاعته وأوامره حتى صارت بمنزلة المنسي ، فنسيهم ، فتركهم من فضله ولطفه ورحمته، وجازاهم على نسيانهم وإغفالهم ذكر الله»[٢].

٤) **ظن السوء والجاهلية بالله:** يقول سبحانه: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا٦﴾ [الفتح: ٦] .

---

(١) التفسير المنير (١١/ ٨٤).

(٢) المرجع نفسه (١٠/ ٢٩٤).

ويقول ﷻ: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، ولا غرابة ممن كان هذا حالهم ، إذا كان المرض متأصلاً في قلوبهم ، **يقول الزحيلي** : «أي وليعذب أهل النفاق وأهل الشرك بالهم والغم بسبب ما يشاهدونه من انتشار الإسلام وانتصار المسلمين وقهر المخالفين، وبما يصابون به من القهر والقتل والأسر في الدنيا، وبعذاب جهنم في الآخرة، لظنهم السيء بالله وحكمه وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يغلبون ويبادون، وأن كلمة الكفر تعلو كلمة الإسلام، كما حكى تعالى عنهم في آية أخرى ، وهي قوله سبحانه: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢]»[(١)].

ويقول الزحيلي في موضع آخر: «يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية أي غير الظن الحق الذي يجب أن يظنوه إذ قالوا: لو كان محمد نبيا حقا ما تسلط عليه الكفار، وهو قول أهل الشرك بالله»[(٢)].

وهذا – مع ما تقدم – فيه دلالة واضحة على أنهم لا يقرون لله بالربوبية ، وأنه القاهر فوق عباده، يدبر الأمر بحكمته، وبيده كل شيء، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وأن الأرض يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، فكيف يعجزه نصرة نبيه وإظهار الحق على الباطل.

٥) **عدم الثقة بوعد الله ورسوله:** يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا١٢﴾ [الأحزاب: ١٢]، وهذا من سفالة طبعهم وعدم قدرهم لله حق قدره وتعظيمه، **يقول الزحيلي** : «أي واذكروا حين قال المنافقون الذين أسلموا في الظاهر ولم تؤمن قلوبهم، وضعفاء العقيدة لحداثة عهدهم بالإسلام: ما وعدنا الله

(١) التفسير المنير (٢٦/ ١٥٧).
(٢) المرجع نفسه (٤/ ١٢٩).

ورسوله من النصر على العدو إلا وعدا باطلا لا وجود ولا حقيقة له»[1].

من خلال ما سبق ذكره يظهر للمتأمل أن المنافق لا يرجو لله وقاراً، إذ إنه يخادع الله ويستهزئ بآياته ، مما يوقعه في بوائق الظن بالله ظن السوء، فيكون في ظلمات بعضها فوق بعض، ولا يبقى بعد ذلك من إسلامه إلا النطق بالشهادتين ، ليستر بهما خبثه وسوء طويته ، وما أضمره من الكفر والإعراض ، ومن ثم فإنه يتخذ الشهادتين مناجاة له من عقوبة دنيوية عارضة ، غافلاً عما ينتظره من عذاب أخروي دائم !!!.

ثانياً: انحطاط أخلاقهم مع رسول الله ﷺ :

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية مبيناً أن أغلب صور النفاق كانت تتجلى في معاملة المنافقين للنبي ﷺ : «فالنفاق يقع كثيراً في حق الرسول وهو أكثر ما ذكره الله في القرآن من نفاق المنافقين في حياته..»[2] .

لقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام هو رمز الإسلام المؤيد بالوحي، وكان المنافقون يخشون فضحه لهم، ومع ذلك لم يسلم من أذاهم ، ولكنه كان يعاملهم – بما يظهرونه له – كما يعامل أصحابه ، وقد جاء في حديث جابر بن عبد الله ﷺ يقول: «كنا مع النبي في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال رسول الله ﷺ: (ما بال دعوى الجاهلية) قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال: (دعوها فإنها منتنة) فسمعها عبد الله بن أبي فقال: قد فعلوها والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن

(١) المرجع نفسه (٢١/ ٢٦٧).

(٢) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحراني (ت:٧٢٨هـ)، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٤٢٥هـ. (٦٣٩/٧).

الأعز منها الأذل، قال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال عليه الصلاة والسلام: (دعه لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه)»[١].

وهكذا كان منهجه ﷺ في تعامله مع المنافقين، يحسن إليهم وينصحهم ولكنه لا يداهنهم في باطلهم . وأما هم فكانوا على النقيض من حسن معاملته ﷺ لهم ، وهذا ما تترجمه أفعالهم التالية :

١. **الفرح بمصابه وإرادة الشر له عليه الصلاة والسلام:** كما قال سبحانه: ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ٥٠﴾ [التوبة: ٥٠]، وهذا نتيجة لما تكنه صدورهم من الحقد عليه ﷺ وقلوبهم من الكفر برسالته عليه الصلاة والسلام؛ حتى بلغ بهم الحال إلى الفرح بهزيمته في المعارك ولو أدى ذلك إلى قتله، **يقول الزحيلي** : «ذكر الله تعالى نوعا آخر من كيد المنافقين وخبث باطنهم، معلما نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بعداوتهم، فقال: إن تصبك حسنة ... أي إن عرضت لك في بعض الغزوات حسنة، أي فتح ونصر وغنيمة، كيوم بدر، ساءهم ذلك وإن أصابتك مصيبة، أي نكبة وشر وشدة كانهزام وتراجع في معركة، كما حدث يوم أحد، قالوا: قد اتخذنا ما يلزم من الحذر والتيقظ والعمل بالحزم، واحترزنا من متابعته من قبل هذا الذي وقع، إذ تخلفنا عن القتال، ولم نتعرض للهلاك لأنا متوقعون هذه الهزيمة، وانصرفوا إلى أهاليهم عن موضع التحدث والمفاخرة بآرائهم هذه، وهم مسرورون للنتيجة»[٢] . ولاشك أن هذا ليس من أخلاق المسلمين فضلاً عن أخلاق المؤمنين، وأن الذي يفرح بمصاب النبي صلى الله عليه وسلم إنما يكون بسبب بغضه وحقده

(١) صحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما، (١٩٩٨/٤) ح(٢٥٨٤).

(٢) التفسير المنير (١٠/ ٢٤٤).

الدفين وإرادة الشر له، وكذلك فإن إظهار الفرح والشماتة وأنهم كانوا أبعد نظراً من الرسول صلى الله عليه وسلم هو لتثبيط عزائم الصحابة وجرح قلوبهم تجاه حبيبهم صلى الله عليه وسلم وهو أسلوب من أساليب إسقاط الرموز في نفوس الأتباع.

٢. **انتقاص النبي ﷺ بوصفه بأنه يصدق كل ما يقال له:** كما أخبر الله سبحانه في كتابه ، فقال: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ٦١﴾ [التوبة: ٦١]، فمن سوء أخلاقهم مع النبي الكريم ﷺ أنهم كانوا ينظرون إلى سمو أخلاقه ﷺ بمنظار معاييرهم الأخلاقية المنحطة ، ومن ذلك خلقه الطاهر في معاملة الناس بالظاهر ، وترك سرائرهم إلى عالم السر وأخفى، فكانت نظرتهم إلى هذا الخلق الفريد على أنه سذاجة وسطحية؛ فيقولون إنه أُذُنٌ على وجه الطعن والذم !!!.

يقول الزحيلي : «دلت الآية أيضا على أن هذا النبي أذن خير لا أذن شر، يستمع ما فيه الصلاح والخير، ويعرض ترفعا وإباء عن سماع الشر والفساد، وهو أيضا رحمة للمؤمنين، لأنه هداهم إلى سعادة الدنيا والآخرة. وأرشدت الآية إلى أن النبي لا يؤمن بأخبار المنافقين إيمان تسليم، ولا يصدقهم فيما يقولون، وإن أكدوا القول بالأيمان، لأن أدبه صلى الله عليه وآله وسلم يمنعه من مواجهة الناس بما يكرهون، فهو يجري أمر المنافقين على الظاهر، ولا يبالغ في التفتيش عن بواطنهم»[(١)] .

٣. **الطعن في عدل النبي ﷺ**: يقول الله ﷻ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ٥٨﴾ [التوبة: ٥٨]،

(١) التفسير المنير (١٠/ ٢٨٤).

يقول الزحيلي : «ومن أسوأ أخلاق المنافقين وقبائحهم وفضائحهم طعنهم في الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بسبب أخذ الصدقات المفروضة من الأغنياء، ويقولون: إنه يؤثر بها من يشاء من أقاربه وأهل مودته، أو بسبب قسمة غنائم الحرب المغنومة من الأعداء، كغنائم حنين التي تألف بها النبي المؤلفة قلوبهم من أهل مكة، وينسبونه إلى أنه لا يراعي العدل»[١]. فمن يعدل إذا لم يعدل النبي صلى الله عليه وسلم؟.

٤. **التطاول على عرض النبي ﷺ**: كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ١١﴾ [النور: ١١]، لم يقف أذى المنافقين على شخص النبي ﷺ ، بل تعداه إلى عرضه وآل بيته ، حيث تكلموا في عرض السيدة عائشة رضي الله عنها ، وحاكوا في حقها جريمة الإفك ، وكان ذلك بإشراف زعيمهم عبد الله بن أبي ، يقول الزحيلي : «إن الذين أتوا بالإفك وهو أبلغ الكذب والافتراء جماعة منكم، لا واحد ولا اثنان، أي ما أفك به على عائشة، بزعامة زعيم المنافقين عبد الله بن أبي، فإنه هو الذي اختلق هذا الكذب، وتواطأ مع جماعة صغيرة، فأصبحوا يروجونه ويذيعونه بين الناس، حتى دخل في أذهان بعض المسلمين، فتكلموا به، وبقي شيوع الخبر قريباً من شهر، حتى نزل القرآن»[٢] .

٥. **الاستهزاء بمجالس النبي ﷺ**: فهم يكرهون مجالس النبي عليه أفضل الصلاة والسلام لأنها مجالس ذكر لله، يقول الحق تبارك وتعالى:

(١) المرجع نفسه (١٠/ ٢٥٧).
(٢) التفسير المنير (١٨/ ١٧٨).

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ١٦﴾ [محمد: ١٦]، يقول الزحيلي : «أي ومن هؤلاء الكفار الخالدين في النار: منافقون يستمعون كلام النبي صلى الله عليه وسلم وتلاوته في خطبه ومجالسه، فلا يفهمون منه شيئا لعدم وعيهم وإدراكهم وإيمانهم، فإذا خرجوا من عنده قالوا لعلماء الصحابة الواعين لما سمعوا، وسألوهم على طريقة الاستهزاء والاستخفاف والسخرية: ماذا قال النبي في الساعة القريبة من هذه؟ والمعنى: أنا لم نلتفت إلى قوله، ولم نكترث بما يتكلم به، ولم نفهم ما يقول، ولم ندر ما نفع ذلك»[1] .

ثالثاً: سوء معاملتهم للمسلمين

إن ما كان يفعله المنافقون مع نبي الأمة ﷺ ينسحب على المؤمنين من باب أولى، فإذا كان رسول الله ﷺ خير البشر، وسيد ولد آدم لم يسلم من أذاهم، فمن كان دونه ﷺ فإنه من باب أولى أن يصل إليه أذاهم، ومن صور سوء أخلاقهم وأذاهم للمسلمين :

١- **التعالي على المسلمين واتهامهم بالسفه:** كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ١٣﴾ [البقرة: ١٣]، يقول الزحيلي : «فإذا قالوا لهم: ادخلوا في ساحة الإيمان كغيركم من الناس، أجابوا مترفعين: أنؤمن بالقرآن وبمحمد، كما آمن السفهاء: أتباع النبي صلى الله عليه وسلم، ضعفاء الناس من العبيد والفقراء، وضعفاء العقل من الجهلاء؟ مع أن العاقل هو من يرى طريق الخير والنور أمامه فيسلكه. فرد الله

(١) المرجع نفسه (٢٦/ ١٠٨).

عليهم بأنهم وحدهم هم السفهاء دون من نسبوهم إلى السفه، فليس عندهم إدراك صحيح للإيمان، ولا يعلمون حقيقته وأثره»[١] .

٢- **تمني وقوع المشقة والضرر بالمسلمين:** كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ١١٨ هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ١١٩ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ١٢٠﴾ [آل عمران: ١١٨-١٢٠] .

تخبرنا هذه الآيات بما تكنه صدور المنافقين من الحقد البين والكراهية الظاهرة للمسلمين ، **يقول الزحيلي** : «أيها المؤمنون بالله ورسوله، وشأن الإيمان السماع إلى الكلام، لا تتخذوا الكافرين من اليهود والنصارى والمنافقين بطانة أي : أصدقاء ، وخواص ، ومستشارين ؛ تطلعونهم على أسراركم ودخائلكم، لأسباب عديدة هي:

أ- لا يقصِّرون في إضراركم وإفساد أموركم، ما استطاعوا ذلك.

ب- يتمنون إلحاق الضرر والمشقة والهلاك بكم في دينكم ودنياكم.

ج- يظهرون لكم العداوة والبغضاء أثناء الكلام وعلى صفحات الوجوه وفلتات اللسان، ويكذبون كتابكم ونبيكم.

د- ما تخفي صدورهم من الحسد والحقد والبغضاء للإسلام وأهله أشد وأكثر مما يظهرون»[٢].

(١) المرجع نفسه (١/ ٨٤).

(٢) التفسير المنير (٤/ ٥٦).

٣- **الانتقاص والطعن ببرِّ المسلمين وإحسانهم لأجل التثبيط:** فهم لا يألون جهداً في تثبيط همم المسلمين عن فعل الخيرات والقدح في نياتهم ، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ٧٩﴾ [التوبة: ٧٩]، **يقول الزحيلي** : «إن شأن المنافقين في كل أمة عجيب وغريب، ديدنهم تثبيط الهمم، وتدمير القيم، فلا يسلم أحد من طعنهم، ولو كان العمل خيراً محضاً فهم يعيبون المتطوعين في الصدقات، والمراد بها هنا النوافل، سواء أكان المتطوع غنياً يأتي بالكثير كعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان، أم فقيراً كأبي عقيل، الذي يأتي بالقليل، وهو جهد المقل، فلا يجدون ما ينفقونه في سبيل الله إلا غاية جهدهم ومنتهى طاقتهم، فيهزأون منهم، وذكر هؤلاء، وإن كانوا داخلين في المتطوعين لأن السخرية منهم كانت أشد وأوقع»[١] .

وأكثر ما ظهر منهم ذلك التثبيط كان في باب الجهاد ، لأنهم أجبن الناس عند لقاء العدو:

١) ففي غزوة بدر قال الله عنهم في سورة الأنفال: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ٤٩﴾ [الأنفال: ٤٩]، **يقول الزحيلي:** «أي اذكر أيها النبي حين قال المنافقون ومرضى القلوب، أي ضعفاء الاعتقاد والإيمان، وقد رأوا قلة المسلمين وكثرة المشركين: غرَّ هؤلاء دينهم أي أن المسلمين اغتروا بدينهم، وتقووا به، وظنوا أنهم ينصرون من أجله، فخرجوا وهم ثلاثمائة وبضعة عشر إلى زهاء ألف»[٢] .

(١) المرجع نفسه (١٠/ ٣٢٧).
(٢) التفسير المنير (١٠/ ٣٤)

٢) وفي غزوة أحد أخبر الله سبحانه عنهم فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ١٦٧ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ١٦٨﴾ [آل عمران: ١٦٧-١٦٨]، **يقول الزحيلي** : «هؤلاء المنافقون إذا دعوا إلى القتال في سبيل الله، أو إلى الدفاع عن النفس والأهل والوطن، أجابوا: لو نعلم أنكم تلقون قتالاً في غزوتكم لاتبعناكم وسرنا معكم، ولكننا نعلم أنكم لا تقاتلون. وهذا يدل على تأصُّل النفاق في قلوبهم، وأن غايتهم التلبيس والتدليس والاستهزاء وتعمية الحقائق، مع أن جمع المشركين في أحد وخروج المسلمين لمقابلتهم قرينة قاطعة على إرادة القتال»[(١)].

٣) وفي غزوة الأحزاب يقول جل ذكره عن حالهم: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا١٣﴾ [الأحزاب: ١٣]، يقول الزحيلي : «أي واذكروا أيضا حين قالت طائفة من المنافقين، وهم أوس بن قيظي ومن وافقه على رأيه، أو عبد الله بن أبي وأصحابه: يا أهل المدينة، لا وجه لإقامتكم مع محمد وعسكره، ولا مسوغ لها مع هذه الحال من الذل والهوان، ولا قرار لكم هاهنا ولا مكان تقيمون فيه، فارجعوا إلى بيوتكم ومنازلكم في المدينة، لتسلموا من القتل والفناء»[(٢)] .

(١) المرجع نفسه (٤/ ١٥٥).
(٢) المرجع نفسه (٢١/ ٢٦٨).

٤) وفي غزوة تبوك يقول الله تعالى عن حالهم: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ٤٥ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ٤٦ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ٤٧﴾ [التوبة: ٤٥-٤٧]، **يقول الزحيلي** : «ولو قصدوا الخروج معك إلى القتال لاستعدوا وتأهبوا له بإعداد السلاح والزاد والراحلة ونحوها، وقد كانوا مستطيعين ذلك، ولكن كره الله انبعاثهم، أي أبغض الله خروجهم مع المؤمنين، لما فيه من أضرار، فثبَّطهم أي أخَّرهم بما أحدث في قلوبهم من المخاوف، وفي نفوسهم من الكسل والفتور ...ثم ألقى الله الطمأنينة في نفوس المؤمنين، وبيَّن أن عدم خروجهم مصلحة للجيش، إذ لو خرج هؤلاء المنافقون ما زادوكم شيئا من القوة والمنعة، بل زادوكم اضطراباً في الرأي وفساداً في العمل والنظام، ولأسرعوا بالسعي بينكم بالنميمة والبغضاء، وتفريق الكلمة، وبذر بذور التفرقة والاختلاف، وإشاعة الخوف والأراجيف من الأعداء، وتثبيط الهمَّة»[1] .

فالمنافقون لم يكفهم خذلانهم للمسلمين في معاركهم الفاصلة مع أعداء الإسلام والتخلف عن الجهاد؛ فقد أضافوا إلى مخازيهم تلك سعيهم إلى تثبيط همم المؤمنين وشلِّ عزائمهم في خوضهم لمعاركهم المصيرية مع الأعداء ، فهم – أي المنافقين – مع المسلمين جسداً وصورة داخل المجتمع الإسلامي ، لكنهم بقلوبهم وواقع حالهم مع الأعداء في إضعاف شوكة الإسلام .

(١) التفسير المنير (١٠/٢٣٧-٢٣٨) بتصرف.

٤- **التفريق بين المؤمنين وصدهم عن الحق:** فلقد أرادوا أن يحتالوا على النبي ﷺ ، وأصحابه بإنشاء وكر لمؤامراتهم في صورة مسجد ، فعاجلهم الله بفضح مخطَّطهم ، ونهى النبي ﷺ وأصحابه عن الاستجابة لطلبهم بالصلاة فيه مطلقاً ، حيث كانوا يبتغون من طلبهم هذا الحصول على اعتراف بهذا الذي أنشأوه على أنه مسجد ؛ وذلك بصلاة القائد الأعلى ﷺ فيه ، فاجهض سبحانه مشروعهم التآمري ، قال تعالى كاشفاً عن مؤامرتهم تلك : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ١٠٧﴾ [التوبة: ١٠٧]، **يقول الزحيلي :** «ومن المنافقين الذين ذكرناهم جماعة بنوا مسجد الضرار بجوار مسجد قباء، وكانوا اثني عشر رجلاً من منافقي الأوس والخزرج، لأسباب أربعة هي:

١- مضارَّة المؤمنين من أهل مسجد قباء الذي بناه النبي ﷺ بمجرد وصوله إلى المدينة.

٢- الكفر بالنبي عليه الصلاة والسلام وبما جاء به، وللطعن عليه وعلى الإسلام، واتخاذه مقرا للكيد والتآمر على المسلمين، فصار مركز الفتنة، وبيت النفاق، ومأوى المنافقين، للتهرب من أداء الصلاة. وهذا كفر، لأن الكفر يطلق على الاعتقاد والعمل المنافيين للإيمان.

٣- التفريق بين المؤمنين الذين كانوا يصلُّون خلف النبي صلى الله عليه وسلم في مسجد واحد، فإذا صلى فيه بعضهم، حدثت الفرقة، وبطلت الألفة، وتفرقت الكلمة. لذا كان الأصل أن يصلي المسلمون في مسجد واحد، ويكون تكثير المساجد لغير حاجة منافيا لأغراض الدين وأهدافه.

٤- الإرصاد، أي الترقب والانتظار لمجيء من حارب الله ورسوله إليه،

ويتخذه مقرا له، ومكانا لقوم راصدين مستعدين للحرب معه، وهم المنافقون الذين بنوا هذا المسجد»[1] .

رابعاً: ولاؤهم لأعداء المسلمين

وهذا نتيجة طبيعية لحقدهم على نبي الإسلام والمسلمين، **وقد ذكر الدكتور الزحيلي** سبب هذا الولاء للأعداء فقال: «وسبب موالاة هؤلاء المنافقين لأعداء الإسلام: أنهم يتأوَّلون في مودَّتهم أنهم يخشون انتصار الكافرين على المسلمين، فتكون لهم أياد عند اليهود والنصارى، فينفعهم ذلك. وهذا شأن المنافقين المستضعفين في كل زمان ومكان، يتخذون صداقات ومودَّات عند زعماء الكفر لتأييدهم ودعمهم أثناء الأزمات وقد أثبت الواقع تخليهم عنهم وقت المحنة الشديدة وبيع صداقتهم بثمن بخس»[2]، ويظهر ذلك من خلال ما يلي:

١- **موالاة الكفار طلباً للعزة والمنعة:** يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا١٣٨ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا١٣٩﴾ [النساء: ١٣٨-١٣٩]، **يقول الزحيلي** : «بشر أي أنذر يا محمد المنافقين من هؤلاء وغيرهم الذين كانوا يميلون مع الكفرة ويوالونهم بالعذاب المؤلم الذي لا يعرف قدره في نار جهنم. ومن صفاتهم أنهم كانوا يتخذون الكافرين أولياء وأنصارا وأعوانا، ويتجاوزون ولاية المؤمنين ويتركونها، ظنا منهم أن الغلبة ستكون للكافرين، ولم يدروا أن العاقبة للمتقين لأن الله معهم»[3].

٢- **المسارعة في إظهار حقيقة كفرهم بمودَّتهم للأعداء وانحيازهم لهم :**

(١) التفسير المنير (١١/ ٤٣).
(٢) المرجع نفسه (٦/ ٢٢٦).
(٣) المرجع نفسه (٥/ ٣٢٠).

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]، **قال الزحيلي** : « أي لا تهتم ولا تبال بمسارعة المنافقين في إظهار الكفر، والانحياز إلى جانب الأعداء، كلما سنحت لهم الفرصة، فإني ناصرك عليهم، وكافيك شرهم»(١)، وقال سبحانه في موضع آخر من نفس السورة: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ٥٢﴾ [المائدة: ٥٢]، **يقول الزحيلي** : «وواقع الأمر أن المنافقين الذين في قلوبهم شك وريب ونفاق يسارعون فيهم، أي يبادرون إلى موالاتهم ومودَّتهم في الباطن والظاهر، وهم عبد الله بن أبي وجماعته المنافقون»(٢) .

٣- **مناصرة الكفار على المسلمين:** لا شك أن هذا ناقض من نواقض الإسلام، يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ١١﴾ [الحشر: ١١]، **يقول الزحيلي** : «ألم تنظر إلى هؤلاء القوم من المنافقين كعبد الله بن أبي بن سلول وعبد الله بن نبتل ورفاعة بن زيد ووديعة بن مالك وسويد وداعس وأمثالهم حين بعثوا إلى يهود بني النضير: أن اثبتوا وتحصنوا، أو تمنعوا، فإننا لا نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم، ولا نطيع في شأنكم ومن أجلكم أحداً ممن يريد أن يمنعنا من الخروج معكم كمحمد وأتباعه، وإن طال الزمان، وإن قوتلتم لننصرنكم

(١) المرجع نفسه (٦/ ١٩٥).
(٢) التفسير المنير (٦/ ٢٢٥).

على عدوكم»[1] .

خامساً: الإعراض عن التحاكم إلى الله ورسوله ﷺ :

وهذا مرجعه إلى ما تكنُّه قلوبهم من عدم التسليم لما نزل على النبي ﷺ من وحي السماء ، وما تخفيه صدورهم من البغض لهذا الذي أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ٤٨﴾ [النور: ٤٨]، **يقول الزحيلي** : «أي وإذا طلبوا إلى تحكيم كتاب الله واتباع هداه، وإلى الرسول ﷺ ليحكم بينهم في خصوماتهم، أعرضوا عن قبول حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، واستكبروا عن اتباع حكمه»[2]، ويقول سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا٦١﴾ [النساء: ٦١]، **يقول الزحيلي** : «إذا قيل لأولئك الزاعمين الإيمان: تعالوا نحتكم إلى ما أنزل الله في القرآن وإلى الرسول، فهو الصراط القويم، رأيت هؤلاء المنافقين يعرضون عنك يا محمد وعن دعوتك، ويرغبون عن حكمك، بكل إصرار وعناد وتعمد للصدود. وهذه الآية مؤكدة لما سبق من تحاكمهم إلى الطاغوت وأصحاب الأهواء والجهلة، فمن أعرض عن حكم الله متعمدا، كان منافقا بلا شك»[3] .

ومن صور إعراض المنافقين عن التحاكم إلى الله ورسوله ﷺ ما يلي :

١- **الرغبة في التحاكم إلى الطاغوت** : وهذا نتيجة واقعية لإعراضهم عن التحاكم إلى الله ورسوله ، فكل حكم غير متوافق مع ما تقرره الشريعة الإسلامية التي بعث الله بها نبيه محمداً ﷺ هو من أحكام الطاغوت ،

(١) المرجع نفسه (٢٨/ ٩٦).
(٢) المرجع نفسه (١٨/ ٢٧٢).
(٣) التفسير المنير (٥/ ١٣٣).

والرضى بحكم الله والكفر بالطاغوت هو من مقتضيات كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) التي تقوم على النفي والإثبات، كما قال سبحانه: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ٢٥٦﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] .

وفي تعليقه على تحاكم المنافقين إلى الطاغوت نقل الزحيلي كلاماً مسدداً لابن القيم في معنى الطاغوت فقال: «وعرف ابن القيم الطاغوت: بأنه ما تجاوز به العبد حدَّه من معبود أو متبوع أو مطاع، وقال: الطواغيت كثيرة، ورؤوسهم خمسة: إبليس لعنه الله، من عُبِدَ وهو راض، من دعا الناس إلى عبادة نفسه، مَنْ ادَّعى شيئا من علم الغيب، مَنْ حكم بغير ما أنزل الله»[(١)] ، وقال الزحيلي في موضع آخر: «الطاغوت: كلُّ ما عُبِدَ مِنْ دون الله، كالشيطان والأصنام، وعبادة الطاغوت مجازٌ عن طاعته»[(٢)]. يقول الله تعالى عن المنافقين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا٦٠﴾ [النساء: ٦٠] .

يقول الزحيلي : «هؤلاء المنافقون إذ لم يقبلوا التحاكم إلى النبي محمد ﷺ، وتحاكموا إلى الطاغوت والضلال مِنَ الكهنة كأبي برزة الأسلمي، أو اليهود مثل كعب بن الأشرف الذي سمي طاغوتاً لإفراطه في الطغيان

(١) المرجع نفسه (٣/ ٢٥-٢٦)، وقد نقل كلام ابن القيم رحمه الله من كتابه: إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن الجوزي، السعودية، ط١، ١٤٢٣هـ، (٢/٩٢). ومن كتاب الشيخ محمد بن عبدالوهاب: ثلاثة الأصول وأدلتها، تحقيق: ناصر بن عبد الله الطريم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، (ص١٩٥).

(٢) المرجع نفسه (٦/ ٢٣٩).

وعداوة النبي ﷺ والتأليب عليه والبعد عن الحق، مع أنهم أُمروا في القرآن أن يكفروا بالطاغوت ويجتنبوه، إنهم إذ لم يقبلوا ذلك، دل على عدم إيمانهم، فألسنتهم تدَّعي الإيمان بالله وبما أنزله على رسوله، وأفعالهم تدل على الكفر بهما، وإيمانهم بالطاغوت وإيثارهم حكمه، وهذا دليل الخروج عن الإسلام»[1].

٢- **الانتقائية في أحكام الشريعة:** وهذا سببه ما استكنَّ في قلوبهم من مرض اتباع الهوى، ولذلك فإن رضاهم ببعض الحق ليس لأنه حق؛ ولكن لأنه وافق هواهم، يقول الله ﷻ : ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ٤٩﴾ [النور: ٤٩]، يقول الزحيلي : «أي إذا كان الحكم في صالحهم جاؤوا إليه سامعين مطيعين لعلمهم بأنه لا يحكم إلا بالحق. وهذا دليل واضح على انتهازيتهم وإرادتهم النفع المعجَّل، فهم يُعرضون عن حكم النبي ﷺ متى عرفوا الحق لغيرهم أو شكُّوا، فأما إذا عرفوه لأنفسهم أسرعوا إلى قبول الحكم النبوي والرضا به»[2] .

٣- **تردُّدهم بين قبول حكم الله ورسوله ﷺ وبين الإعراض عنه :** هذا التردُّد مردُّه إلى ضعف الإيمان بالله ورسوله ﷺ ، والتسليم بأنَّ حكمهما هو الحكم العدل ، وتعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ٥٠﴾ [النور: ٥٠]، **يقول الزحيلي :** «أي أن ترددهم وذبذبتهم بين قبول حكم النبي صلى الله عليه وسلم تارة والإعراض عنه تارة أخرى لأحد الأسباب التالية: وهي إما أنهم مرضى القلوب بالكفر والنفاق، والمرض ملازم لهم، وإما أنهم

(١) التفسير المنير (٥/ ١٣٣).
(٢) المرجع نفسه (١٨/ ٢٧٢).

شكُّوا في الدين وفي نبوته صلى الله عليه وسلم، وإما أنهم يخافون أن يجور الله تعالى ورسوله ﷺ عليهم في الحكم»[١] .

سادساً: كسلهم عن العبادة ومجافات سلوكهم لأحكام الشريعة الإسلامية وآدابها :

وهي الشخصية الحقيقية للمنافق، ومن أمثلة ذلك:

١- **كراهيتهم للصلاة والإنفاق في سبيل الله:** ولذلك كان المنافق لا يكاد يصلي العشاء والفجر في عهد الرسول ﷺ ؛ لأن الناس لا تتبين وجودهم في ظلمة الليل، فهم يصلون من أجل أن يراهم الناس، وأما إنفاق المال في سبيل الله فهم لا يؤمنون بما أعدَّه الله للمنفقين من أجر عظيم، ويرون النفقة في سبيله تعالى هدراً للمال بلا فائدة مادية ملموسة ، ومن ثم فإن ما يستحق النفقة عندهم هو ما كان طلباً لمنفعة دنيوية ، أو لأجل مجاملة يبذلون المال في سبيلها على كره منهم؛ حفاظاً على صورة تدينهم الظاهري في المجتمع المسلم ، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ٥٤﴾ [التوبة: ٥٤]، **يقول الزحيلي** : «ولا يصلون إلا وهم متكاسلون لأنهم لا يرجون بصلاتهم ثوابا، ولا يخشون بتركها عقابا، فهي ثقيلة عليهم، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ٤٥﴾ [البقرة: ٤٥]، ولا ينفقون نفقة في سبيل الجهاد وغيره إلا وهم كارهون لها، لا تطيب بها أنفسهم لأنهم لا ينفقون لغرض الطاعة، بل رعاية للمصلحة الظاهرة، وسترا للنفاق، ويعدُّون الإنفاق مغرما وخسارة بينهم»[٢].

(١) المرجع نفسه (١٨/ ٢٧٣).

(٢) التفسير المنير (١٠/ ٢٥٠).

٢- **كراهيتهم لشعيرة الجهاد في سبيل الله:** وهذا بلا ريب نتيجة طبيعية لحب الدنيا الذي تمكَّن في قلوبهم ، فكرهوا الموت في سبيل الله الذي يحول بينهم وبين ما يشتهون، كما أخبر عن ذلك المولى ﷻ : ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ٨١﴾ [التوبة: ٨١]، **يقول الزحيلي** : «الآيات تدلُّ على قصر نظر الإنسان، فهو ينظر غالبا إلى الحال والواقع الذي هو فيه، ولا ينظر إلى المستقبل وما يتمخض عنه من أحداث. فهؤلاء المنافقون فرحوا بالقعود والراحة في المدينة لعدم إيمانهم بجدوى الجهاد، وكرهوا الجهاد لأنه يحرمهم نعمة التفيؤ بالظلال وقطاف الثمار. ولكن القرآن لامهم ونبَّه عقولهم، فإن شدة الحر في نار جهنم التي يصيرون إليها بسبب تخلفهم عن جهاد الأعداء ونصرة الإسلام أكثر بكثير جداً من حرِّ الصيف في الدنيا»(١).

٣- **كثرة الأيمان الكاذبة منهم:** وهذا ديدن المنافق المخادع الذي يعلم في قرارة نفسه أنه غير صادق عند الناس، فيُكثر من الأيمان – غير مبال بحرمة اليمين على الكذب – رجاء أن يُصدَّق كلامه ، يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ١٤﴾ [المجادلة: ١٤]، **يقول الزحيلي** : «أي واتخذوا الأيمان الكاذبة ستارا لهم، فهم يحلفون أنهم مسلمون، أو ما نقلوا الأخبار إلى اليهود، وهم يعلمون بطلان ما حلفوا عليه، وأنه كذب لا حقيقة له»(٢)، بل إن الله جل في علاه شهد على أنهم كاذبون في كل أحوالهم كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ١٠٧﴾

(١) المرجع نفسه (١٠/ ٣٣٢).
(٢) المرجع نفسه (٢٨/ ٥٢).

[التوبة: ١٠٧]، وقال في موضع آخر: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ١١﴾ [الحشر: ١١]، وقال سبحانه في موضع ثالث: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ١ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ٢﴾ [المنافقون: ١-٢]، **يقول الزحيلي** : «أي إنهم جعلوا أيمانهم الكاذبة التي حلفوها وقاية وسترا لصون دمائهم من القتل، وأنفسهم من الأسر، وأموالهم من الأخذ، حتى لا تطبَّق عليهم أحكام الكفار من القتل والأسر واغتنام المال، فاغتر بهم من لا يعرف حقيقة أمرهم، فاعتقدوا بأنهم مسلمون، فاقتدوا بهم فيما يفعلون، مما ألحق ضررا بكثير من الناس، إذ منعوهم من الإيمان والجهاد وأعمال الطاعة بسبب ما يصدر منهم من التشكيك والقدح في النبوة، إنه لقبيح ما كانوا يفعلون من النفاق والصد عن سبيل الله تعالى»[(١)].

٤- **محبَّتهم للمنكر وكرههم للمعروف** : فالمنافقون كما سبق معنا يظهرون الإيمان ويُبطِنون الكفر ، ولذلك فإن محبتهم التي هي فعل قلبي متوجِّهة لما يبطنون من الكفر بكل ما أنزل الله ومخالفته ، ولذلك فهم يحبُّون المنكر الذي يأمر الله تعالى بتركه ، بل ويأمرون بفعله ، ويكرهون المعروف الذي يأمر الله سبحانه بفعله ، وينهون عن فعله ، قال الله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ٦٧﴾ [التوبة: ٦٧]، **يقول الزحيلي** : «المنافقون والمنافقات أي الرجال والنساء يشبه بعضهم بعضاً في صفة النفاق والبعد عن الإيمان وفي الأخلاق والأعمال، فهم يأمرون بالمنكر: وهو ما أنكره الشرع ونهى عنه، ولم

(١) التفسير المنير (٢٨/ ٢١٦).

يقره الطبع السليم والعقل الصحيح ... وينهون عن المعروف : وهو ما أمر به الشرع وأقره العقل والطبع»[١].

٥- **الرياء والسمعة هما الدافع في عبادتهم:** لأنهم لا يرجون تجارة مع الله وإنما يرجون ما عند الناس من جلب منفعة أو دفع مضرة، يقول الله تعالى: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا١٤٢﴾ [النساء: ١٤٢]، **يقول الزحيلي** : «ذكر الله تعالى صفة بواطنهم الفاسدة، فقال: يراؤون الناس بها أي لا إخلاص لهم ولا معاملة مع الله، بل إنما يريدون أن يراهم الناس تقية لهم ومصانعة، ويقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة، ولهذا يتخلفون كثيراً عن الصلاة التي لا يرون فيها غالباً كصلاة العشاء وصلاة الصبح، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: (أثقل الصلاة على المنافقين: صلاة العشاء، وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا..)[٢]»[٣]،

وقال سبحانه في سورة الماعون: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ٤ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ٦﴾ [الماعون: ٤-٦]، **يقول الزحيلي** : «أي فخزي وعذاب للمنافقين الذي يؤدّون الصلاة أحياناً تظاهراً، والذين هم غافلون عنها، غير مبالين بها، لا يرجون بصلاتهم ثوابا إن صلوا، ولا يخافون عليها عقابا إن تركوا، فهم عنها غافلون حتى يذهب وقتها، وإذا كانوا مع المؤمنين صلوا رياء، وإذا لم يكونوا معهم لم يصلوا»[٤] .

---

(١) التفسير المنير (١٠/ ٢٩٥) بتصرف.

(٢) رواه النسائي: كتاب الإمامة، باب الجماعة إذا كانوا اثنين، (١٠٤/٢) ح(٨٤٣) قال الشيخ الألباني: حسن.

(٣) التفسير المنير (٥/ ٣٢٨).

(٤) المرجع نفسه (٣٠/ ٤٢٣).

٦- **قلة ذكر المنافقين لله تعالى** : وهذه ثمرة طبيعة لعدم محبتهم لله وإيمانهم به ، ولذلك تكون قلوبهم غافلة عن ذكره تعالى ، وإذا ذكروه بألسنتهم فهو من أجل التظاهر بإيمانهم ، وهذا عموم أحوالهم وديدنهم مع أوامر الله ونواهيه التي هي من جملة ذكره سبحانه ، فهم لا يأخذون منها إلا ما يوافق هواهم ، قال سبحانه: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا١٤٢﴾ [النساء: ١٤٢]، **يقول الزحيلي** : «أي في صلاتهم لا يخشون، ولا يدرون ما يقولون، بل هم في صلاتهم ساهون لاهون، وإنهم في الواقع لا يصلُّون إلا قليلاً، فإذا لم يرهم أحد لم يصلوا»[(١)]. ويقول في موضع آخر: «أما المنافقون فقال ابن عباس عنهم: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون، ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين»[(٢)] . ويقول سبحانه عنهم: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ٦٧﴾ [التوبة: ٦٧]. **يقول الزحيلي** : «نسوا ذكر الله، وأغفلوا تكاليف الشرع مما أمر به الله ونهى عنه، فنسيهم أي جازاهم بمثل فعلهم، وعاملهم معاملة من نسيهم، بحرمانهم من لطفه ورحمته، وفضله وتوفيقه في الدنيا، ومن الثواب في الآخرة، كقوله تعالى: (اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا)[الجاثية ٤٥/ ٣٤] ، وذلك لتركهم التمسك بطاعة الله»[(٣)] .

---

(١) التفسير المنير (٥/ ٣٢٩).

(٢) المرجع نفسه (٩/ ٢٤٧)، وقد جاء كلام ابن عباس رضي الله عنه في كتاب: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ، (٢٧/١١).

(٣) المرجع نفسه (١٠/ ٢٩٦).

٧- **إخلاف الوعد والعهد:** وهذا سلوك منسجم مع كذبهم، ومخالفة باطنهم لظاهرهم، يقول الله سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ٧٥ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ٧٦﴾ [التوبة: ٧٥-٧٦]، **قال الزحيلي** : «فلما رزقهم الله تعالى، وأعطاهم من فضله ما طلبوا، لم يوفوا بما قالوا، ولم يصدقوا فيما وعدوا، وإنما بخلوا به وأمسكوه، فلم يتصدقوا منه بشيء، ولم ينفقوا منه في مصالح الأمة كما عاهدوا الله عليه، بل تولوا بكل ما أوتوا من قوة عن العهد وطاعة الله، وأعرضوا إعراضاً جازماً عن النفقة وعن الإسلام، بسبب تأصل طبع النفاق في نفوسهم»[١]، ثم قال بعدها : عند قوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ٧٧﴾ [التوبة: ٧٧]: «أي أنه تعالى أعقبهم النفاق في قلوبهم إلى الموت بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم، وخلف الوعد والكذب من أخص صفات المنافقين، كما جاء في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان)[٢] ، وأخرج البخاري أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (أربع من كن فيه، كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)[٣] »[٤] .

(١) المرجع نفسه (١٠/ ٣٢٠).
(٢) رواه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، (٢١/١) ح(٣٣).
(٣) رواه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، (٢١/١) ح(٣٤).
(٤) التفسير المنير (١٠/ ٣٢١).

٨- **إظهار الإيمان وإبطان الكفر**: وهذه مادة النفاق ولُبّه، وبها يرتكس المنافق في قعر جهنم ودركاتها حتى يصل إلى قاعها والعياذ بالله، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ٨ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ٩ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ١٠﴾ [البقرة: ٨-١٠]، فكشف الله في بيانه هذا خداعهم، وأخبر أن حظهم من الإيمان القول فقط، أما قلوبهم فهي مطمئنة بالكفر، **يقول الزحيلي** : «وأول هذه الصفات النطق بالإيمان باللسان، وامتلاء القلب بالكفر والضلال. وكان عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين في عصر النبوة، وكان أكثر أصحابه من اليهود، وكانوا يدعون الإيمان، فرد الله عليهم دعواهم، وأنهم في الحقيقة ليسوا بمؤمنين، وإن تظاهروا به، ولا شك أنهم بهذا في صورة المخادعين لله، والله يعلم عنهم ذلك، فهم أشد ضرراً من الكفار، ولهم في الآخرة عذاب أليم بسبب كذبهم في دعواهم الإيمان بالله واليوم الآخر»[(١)].وفي هذه الآيات ذكر الله ارتباط هذه الصفة بوسيلتين مترادفتين وهما المخادعة والكذب، فإظهارهم للإيمان مع بقاء الكفر فيه مخادعة للمسلمين ، ولكنهم تمادوا في الخداع حتى ظنوا أنهم يخادعون الله العالم بما تخفي صدورهم ؛ وهذا من خفَّة عقولهم وجهلهم، **يقول الزحيلي** : «ونظراً لقصور عقولهم تصوروا أنهم يخدعون الله تعالى، وهو منزه عن ذلك، فإنه لا يخفى عليه شيء، وهذا دليل على أنهم لم يعرفوه، ولو عرفوه لعرفوا أنه لا يخدع، وليس خداعهم إلا وبالاً عليهم، والله قادر على كشف أمرهم للمسلمين»[(٢)].

(١) المرجع نفسه (١/ ٨٠-٨١).
(٢) المرجع نفسه (١/ ٨١).

٩- **الإفساد في الأرض وادِّعاء الإصلاح:** وهذا ديدن من في قلبه مرض متأصِّل حتى وصل في قوة الانحراف إلى عكس الموازين ، وقلب الحقائق فيرى الإفساد إصلاحاً والإيمان سفاهة، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ١١ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ١٢ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ١٣﴾ [البقرة: ١١-١٣]، **يقول الزحيلي** : «إذا قيل للمنافقين: إن مؤامراتكم الدنيئة ومخططاتكم الخبيثة بإثارتكم الفتن، والتجسس لحساب الكفار، وتأليب العرب على المسلمين فساد، قالوا: ليس الأمر كما تزعمون، فإنما نحن مصلحون، لا نبغي إلا الإصلاح، فرد الله عليهم بأنهم وحدهم هم المفسدون، ولكنهم لا يدركون خطورة عملهم، ولا يشعرون بهذا الإفساد، لأنه أصبح غريزة لهم، مركزة في طباعهم»(١).

ويقول في موضع آخر: «وأرشدت الآية إلى أن فريق المنافقين شأنه الإفساد والتدمير والتخريب من الباطن، وهو لا يتقي الله، ولا يخشاه، فحق له العذاب في جهنم، فهي مأواه ومصيره، وبئس المصير»(٢) .

يتجلى مما سبق ذكره من معالم شخصية المنافق، أنها شخصية متلوِّنة وغير واضحة ، وأنها فئة خطيرة على المجتمع، لأن المنافق عدو حقيقي ولكنه متخفٍّ ومتسربل بلباس الإسلام ، لا يجرؤ على إظهار كفره ، إلا ما كُشِف من حاله بفلتة لسان أو زلَّة سلوك ، فكان لزاماً على الداعية أن يتعامل معه في دعوته بحذر شديد حتى يرجو خيره وهدايته أو يتقي شرَّه وعداوته .

(١) التفسير المنير (١/ ٨٤).
(٢) المرجع نفسه (٢/ ٢٣٠).

المبحث الثالث

معالم دعوة المنافقين وكيفية التعامل معهم

لما كان المنافقون يجمعون بين أمرين في غاية الخطورة بالنسبة للإسلام وأهله ؛ من جهة كونهم يعيشون في وسط المجتمع المسلم ، وهذا بحدِّ ذاته يشكِّل خطورة كبيرة على أهل الإسلام ، ومن جهة ثانية فإنَّ وصف أي مسلم بالنفاق بوقوع الظن أو الشك حوله ، قد يكون فيه جناية على إنسان مؤمن محبٍّ لله ورسوله ﷺ ، وهذا ما يدعونا إلى وضع ميزان دقيق في دعوتهم وفي كيفية التعامل معهم ، ويتجلَّى هذا الميزان بالمعالم والنقاط التالية :

أولاً: تذكير من تظهر عليهم علامة النفاق بأنَّ باب التوبة مفتوح :

بعد أنْ تقرَّر أنَّ التوبة بابها مفتوح للمنافق مع عظم جرمه، فهذا يلزم الداعية بأن يُبقي باب الأمل في التوبة والأوبة وإن كبرت طوامُّه وكثرت بوائقه، فباب التوبة مفتوح حتى الغرغرة أو طلوع الشمس من مغربها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا١٤٥ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا١٤٦﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦]، **قال الزحيلي** : «ثم ذكر الله تعالى طريق الإصلاح وهو فتح باب التوبة عن النفاق، وشرط الله تعالى لقبول توبة المنافقين توبة صحيحة أربعة شروط في قوله: إلا الذين تابوا وأصلحوا، واعتصموا بالله، وأخلصوا دينهم لله»[(١)]. وهذا هو المنهج الصحيح الذي يسير عليه الداعية إلى الله تعالى، وخلاصته التبشير بأن باب التوبة مفتوح للعصاة والشاردين عن الله تعالى ، وحثِّهم على التوبة إلى الله تعالى ؛ وهذا هو أيضاً منهج الأنبياء والمرسلين الذين

(١) التفسير المنير (٥/ ٣٣٠).

أرسلهم الله مبشرين لا منفِّرين ، وابتعثهم سبحانه رحمة لعباده ، ومرشدين لهم إلى طريق الهداية والنجاة من درك الشقاء في الدنيا والآخرة .

ثانياً: الإعراض عمن ظهرت علامات نفاقهم والمبالغة في موعظتهم:

وقد جاء هذا التوجيه في قوله تعالى لنبيه تجاه المنافقين: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا٦٣﴾ [النساء: ٦٣]، وهذا فيه تحذير لسوء فعلهم وعاقبة أمرهم ، وفيه أيضاً تنبيه للناس من سلوكهم ، حتى لا يقعوا في حبائل مكرهم وأذاهم ، قال الزحيلي : «وسائل إمكان إصلاح المنافقين ثلاث:

أ- الإعراض عنهم وعن عقابهم وعن قبول اعتذارهم وعن تلقيهم بالبشاشة والتكريم.

ب- الوعظ والتخويف والنصح والإرشاد إلى الخير على نحوٍ يبعثهم على التأمل فيما يوعظون به، وتلين قلوبهم لسماعه.

ج- الزجر بالقول المؤثِّر البليغ في السرِّ والعلن عن طريق التوعد بالقتل والاستئصال إنْ استمروا في نفاقهم، وإخبارهم بأن ما يضمرونه من نفاق غير خاف على من يعلم السرَّ وأخفى، وأنهم كالكفار، بل أشد منهم كفراً، وعقابهم في الدرك الأسفل من النار»(١).

وقال الله سبحانه في موضع آخر: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا٨١﴾ [النساء: ٨١]، **يقول الزحيلي** : «أي اصفح عنهم واحلم عليهم ولا تؤاخذهم ولا تهتم بمؤامراتهم، ولا تكشف أمورهم للناس، ولا تخف منهم أيضاً. وتوكل على الله أي فوض الأمر إليه، وثق به في جميع أمورك، فإن الله كافيك شرَّهم، وكفى به ولياً وناصراً ومعيناً لمن

(١) التفسير المنير (٥/ ١٣٥).

توكل عليه وأناب إليه»[١].

وقال جل ذكره في موضع ثالث: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ٩٥﴾ [التوبة: ٩٥]، **يقول الزحيلي** : «أي إنهم سيحلفون لكم بالله معتذرين، لتعرضوا عنهم فلا تعاتبوهم ولا تؤنبوهم على قعودهم مع الخالفين من النساء وأمثالهم، فأعرضوا عنهم ولا توبخوهم، احتقارا لهم لأنهم رجس ، أي : قذر معنوي، وخبث نجس بواطنهم واعتقاداتهم، لا يقبلون التطهير، وهذا علة الإعراض وترك المعاتبة. ومأواهم في آخرتهم جهنم، جزاء بما كانوا يكسبون في الدنيا من الآثام والخطايا. وهذا من تمام التعليل، وكأنه قال: إنهم أرجاس من أهل النار، لا ينفع فيهم التوبيخ في الدنيا والآخرة»[٢].

ولاشك أن الإعراض عن المنافقين وهجرهم لرجسهم وسلوكهم المشين لئلا يتنجس المسلم بأقوالهم وأفعالهم ويكونوا منبوذين في المجتمع ولا يسمع لهم فينحسر شرهم ويبقى ما يقومون به مستنكر غير مألوف.

ومع هذا الإعراض فإن المؤمن يبذل الموعظة والنصيحة متى ما سنحت الفرصة وتطلب الموقف رجاء أن توافق لحظة قبول منهم وإقبال للنفس على الخير، فإن للنفس إقبال وإدبار.

ثالثاً: ترهيب من ظهرت عليهم علامات النفاق بذكر أوصافهم والتشهير بهم

وهذا ما نراه واضحاً في كثير من آيات القرآن ا لكريم التي تذكر أوصاف المنافقين ، بل إن الله تعالى أنزل باسمهم سورة وهي سورة (المنافقون) إظهاراً لصفاتهم ، وقد كان منهج كتاب الله تعالى التشهير

(١) التفسير المنير (٥/ ١٧٠).
(٢) المرجع نفسه (١١/ ٩-١٠).

بأفعالهم دون ذكر أسمائهم لأن النفاق متجدد مع كل زمان ومكان، ولأن المقصد ردعهم والتحذير من أفعالهم المتجددة في كل زمان ، يقول الله سبحانه: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ٦٤﴾ [التوبة: ٦٤]، **يقول الزحيلي** : «أي يخاف المنافقون ويتحرزون أن تنزل على المؤمنين سورة تكشف أحوالهم، وتفضح أسرارهم، وتبين نفاقهم، كهذه السورة التي سميت: الكاشفة والفاضحة والمنبئة، التي تنبئ المؤمنين بما في قلوب المنافقين، وتخبرهم بحقيقة وضعهم، فيفتضح أمرهم، وتتكشف أسرارهم»، وعندما سُئل حَبر الأمة عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما عن سورة التوبة قال: «التوبة هي الفاضحة ما زالت تنزل (ومنهم ومنهم) حتى ظنوا أنها لن تبقي أحداً منهم إلا ذكر فيها»[1] .

رابعاً: التذكير غير المباشر بعقاب الله تعالى للمنافقين إن لم يتوبوا :

فقد أخبر الله سبحانه أنه لهم بالمرصاد ، وأن إمهاله لهم لا يعني تركهم وإهمالهم دون عقاب ، ومن صور عقابه سبحانه لهم تركهم يتمادون في غيهم ليزدادوا مرضاً في قلوبهم ، فينتهي بهم الأمر إلى أن ينالوا العذاب الذي ينتظرهم في الآخرة ، فضلاً عما ينالهم من الخزي والضياع في حياتهم الدنيا، قال تعالى واصفاً حالهم : ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ١٠﴾ [البقرة: ١٠] ، ومن عقوبة الله تعالى على نسيانهم لما أمروا به من الإيمان والتسليم بما أنزل على نبيه محمد ﷺ أنه سبحانه ينساهم بتركهم – كما تقدم – إلى مصيرهم وإلى ما ينتظرهم من الشقاء كما قال سبحانه: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ٦٧﴾ [التوبة: ٦٧]، ومن صور عقوبته لهم سبحانه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ

(١) صحيح البخاري: كتاب التفسير، باب تفسير سورة الحشر، (١٨٥٢/٤) ح(٤٦٠٠).

يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا١٤٥﴾ [النساء: ١٤٥] ، **يقول الزحيلي** : «عقاب المنافق في الدرك الأسفل من النار وهي الهاوية لغلظ كفره، وكثرة غوائله، وتمكنه من أذى المؤمنين»(١) .

خامساً: التنفير من أفعال المنافقين والتشبه بهم :

وهذا أسلوب قرآني متكرر لتقريب المعنى الذي قد يخفى على القارئ بذكر أشياء محسوسة ملموسة فتكتمل الصورة في ذهنه من خلالها، **يقول الزحيلي** : «فإن في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكيراً وعظةً وتصويراً للمعاني لأن تشبيه المعاني المعقولة بالأمور المحسوسة يرسخ المعاني، ويزيل الخفاء والشك فيها، ويجعلها كالأشياء الملموسة»(٢)، وقال في موضع آخر: «وفي إيراد هذا المثل والتشبيه بالصورة الواقعية إشارة إلى أن للأمثال تأثيراً قوياً في إقناع السامعين، وأنها أقوى أثراً من إيراد الحجج والبراهين»(٣) . وقد أورد الله ﷻ أمثلة كثيرة عن المنافقين فقال سبحانه: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ١٧ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ١٨ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ١٩ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ٢٠﴾ [البقرة: ١٧-٢٠]، **يقول الزحيلي** : «ضرب الله تعالى في هذه الآيات مثلين لتوضيح حال المنافقين وبيان شناعة أعمالهم وسوء أفعالهم،

(١) التفسير المنير (٥/ ٣٣٤).
(٢) التفسير المنير (١٣/٢٤٣).
(٣) المرجع نفسه (٩/ ١٦٥).

تنكيلاً بهم، وفضحاً لأمورهم، إذ كانوا فتنة للبشر، ومرضاً في الأمة. وضرب الأمثال هو منهج القرآن لتوضيح المعاني وإبراز المعقولات الخفية في معرض المحسوسات الجلية، وهذان المثلان يصوِّران حالة القلق والحيرة والاضطراب عند المنافقين وسرعة انكشاف أمرهم»[1].

وقال سبحانه في موضع آخر يصف سرعة تقلبهم واضطرابهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ١١﴾ [الحج: ١١]، **يقول الزحيلي:** «أي وبعض الناس يعبد الله على شكٍّ وطرف من الدين لا في القلب، كمن يقف على حافَّة وادٍ، أو على طرف الجيش ليفرَّ عند الإحساس بالهزيمة، فهو مضطرب الإيمان، غير مطمئنَّ القلب، غير واثق بهذا الدين، ولا صادق النية، ولا مخلص في العبادة، وهم صنف من المنافقين»[2] . وهذا كقول الله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ١٠﴾ [العنكبوت: ١٠]، **يقول الزحيلي** : «وهذا دليل على أن التخلي عن الإيمان سهل على المنافق لأنه لم يخالط الإيمان شغاف قلبه، وإنما كان مجرد ترداد على اللسان، لمصالح دنيوية، فإذا تعرّض لأدنى أنواع الأذى، ترك الله بنفسه»[3].

وشبّههم الله بالأخشاب المجوفة التي يظنها الناس صلبة ثابتة ، وهي في حقيقتها ضعيفة هشة تحتاج إلى من يسندها، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ

(١) المرجع نفسه (١/ ٩١).
(٢) المرجع نفسه (١٧/ ١٦٩).
(٣) التفسير المنير (٢٠/ ٢٠٣).

صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ٤﴾ [المنافقون: ٤]، **يقول الزحيلي** : «أي وإذا نظرت إليهم تروقك هيئاتهم ومناظرهم، لما فيها من النضارة والرونق وجمال الصورة واعتدال الخلقة، وإن تكلموا حسن السماع لكلامهم، وظن أن قولهم حق وصدق، لفصاحتهم وحلاوة منطقهم وذلاقة ألسنتهم، كأنهم أخشاب جوفاء منخورة مستندة إلى الحيطان، فهم مجرد كتل بشرية لا تفهم ولا تعلم، وقد كان عبد الله بن أبي رأس المنافقين فصيحاً جسيماً جميلاً، ولكنه وصحبه لا وعي ولا إدراك لديهم، لخلوهم عن الفهم النافع، والعلم الذي ينتفع به صاحبه، فهم صور بلا معان»[(١)] .

سادساً: منع من علم نفاقهم من الجهاد والامتناع من الصلاة على موتاهم:

هذا لا يكون إلا من ولي الأمر الذي بيده أمر الجهاد وإمامة المسلمين العامة، وكذلك الصلاة فيها تزكية لحال هذا الميت، فيترك الصلاة عليهم لعامة الناس زجراً لمن اغتر بهم، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ٨٣ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ٨٤﴾ [التوبة: ٨٣-٨٤]، فهذا توجيه من الله إلى رسوله محمد ﷺ ومن بعده من خلفائه وولاة أمر المسلمين في كيفية التعامل مع المنافقين، **يقول الزحيلي** : «تتضمن الآيات اتخاذ مواقف حاسمة من المنافقين، بعد أن أمهلوا لمدة طويلة، وعوملوا في الظاهر معاملة المسلمين. وهي مواقف ثلاثة: منعهم من الخروج إلى الجهاد مع المسلمين، وعدم الصلاة على موتاهم، وعدم الاغترار بأموالهم وأولادهم التي يتباهون بها،

(١) التفسير المنير (٢٨/ ٢١٧).

وتلك المواقف تدل على أنهم جماعة كفار، كفروا بالله ورسوله»[1] .

سابعاً: الحذر من التعامل مع من عُلِمَ نفاقُهم وعدم الاغترار بأيمانهم :

كما قال سبحانه: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ٤﴾ [المنافقون: ٤]، **يقول الزحيلي** : «هم الأعداء الألدّاء، فاحذر مؤامراتهم، ولا تطلعهم على شيء من أسرارك، لأنهم عيون لأعدائك من الكفار، لعنهم الله وطردهم من رحمته وأهلكهم، كيف يصرفون عن الحق، ويميلون عنه إلى الكفر، ويتركون الهدى إلى الضلال»[2]، وسبب التحذير منهم أنهم يُكثرون الحلف بأنهم مسلمون ومصدقون برسالة محمد ﷺ ، فيغتر بهم الناس من طريقين: إن كانوا مسلمين قلّدوهم ، واستحسنوا فعلهم فوقعوا في النفاق، وإن كان هؤلاء الناس المغرر بهم غير مسلمين فإنهم يصدونهم عن الدخول في الإسلام بتشويه صورته ، **يقول الزحيلي**: «لا يبالي المنافقون بالحلف كذبا، ويصدون عن الدخول في الإسلام، فقد اتخذوا بقيادة عبد الله بن أبي أيمانهم وقاية وسترا من الناس، يتقون بها تطبيق أحكام الكفرة عليهم من القتل والسبي واغتنام الأموال، فاغترّ الناس بهم وظنوا أنهم مسلمون، فقلّدوهم، فأدّى صنعهم هذا إلى صد الناس، من اليهود والمشركين عن الدخول في الإسلام، ومنعهم من الجهاد بسبب تخلّفهم ، واقتداء غيرهم بهم»[3] .

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ٨٥﴾ [التوبة: ٨٥]، وهذا تحذير لجميع المسلمين بعدم استحسان أحوالهم المادية والدنيوية لأنهم ممن عُجّلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا، **يقول الزحيلي** معنى الآية : «النهي عن الاغترار

(١) المرجع نفسه (١٠/ ٣٣٨).
(٢) التفسير المنير (٢٨/ ٢١٧).
(٣) المرجع نفسه (٢٨/ ٢١٨).

بأموالهم وأولادهم، والتحذير منه مرة بعد أخرى لشدة تعلّق النفوس بذلك، وحملاً للإنسان المؤمن على الاشتغال بما هو خالد باق، وطلب مغفرة الله تعالى»[١] .

ثامناً: الغلظة على من عُلم نفاقهم :

لأنهم يأخذون أحكام المسلمين بما يظهروه من أركان الإسلام، أما إذا أعلنوا الكفر فحكمهم كحكم الكفار المرتدين، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ٧٣﴾ [التوبة: ٧٣]، **يقول الزحيلي** : «وهذا يقتضي أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق، كما اختار ابن جرير الطبري[٢]. فإن لم يظهروا النفاق يعاملون باتفاق الأئمة معاملة المسلمين إلا إذا ارتدوا، أو بغوا على جماعة المسلمين بالقوة، أو امتنعوا من إقامة شعائر الإسلام وأركانه. قال ابن عباس رضي الله عنه: جهاد الكفار بالسيف، وجهاد المنافقين باللسان، أي بالحجة والبرهان»[٣]، ثم قال بعدها: «وقد دلت الدلائل الأخرى من غير الآية على أن جهاد الكفار بالسيف، وجهاد المنافقين تارة بإقامة الحجة والبرهان، وبترك الرفق أحيانا، وبالانتهار أحيانا أخرى. قال ابن مسعود في قوله: جاهد الكفار والمنافقين: «تارة باليد (أي بالسلاح الحربي) وتارة باللسان، فمن لم يستطع فليكشر في وجهه، فمن لم يستطع فبالقلب»[٤]. وقد

(١) التفسير المنير (١٠/ ٣٤٠).

(٢) قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره: «وأولى الأقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب ما قال ابن مسعود من أن الله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم من جهاد المنافقين، بنحو الذي أمره به من جهاد المشركين»، ينظر: تفسير الطبري (٥٦٨/١١).

(٣) التفسير المنير (١٠/ ٣١٢).

(٤) التفسير الكبير، الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت:٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ، (١٦/ ١٠٣).

أدت سياسة الإسلام الحكيمة بأمر الله وحكمة رسوله، ومعاملة المنافقين معاملة المسلمين في الظاهر، إلى توبة أكثرهم وإسلام الألوف منهم»[1].

وقد تكررت الآية السابقة بنصها في سورة التحريم ، فقال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ٩﴾ [التحريم: ٩]، **يقول الزحيلي** : «أي يا أيها الرسول النبي قاتل الكفار بالسيف، والمنافقين بالحجة والبرهان وإقامة الحدود عليهم إذا ارتكبوها، وشدد عليهم في الدعوة إلى الإسلام في الدنيا، واستعمل العنف والقسوة والشدة مع الفريقين، فيما تجاهدهما به من القتال والمحاجة والوعيد»[2] .

ولاشك أن في ذلك إظهار لعزة الإسلام وسطوته على حماه حتى لا يستباح من أعداء الخارج والداخل، وأن جهاد المنافقين يتطلب من العلماء والدعاة التسلح بالعلم والبيان وقوة الحجة ورد الشبهة والتنبه لمخادعتهم وتلونهم حتى يكونوا سداً منيعاً.

(١) التفسير المنير (١٠/ ٣١٣).
(٢) المرجع نفسه (٢٨/ ٣٢٠).

الخاتمة:

من خلال ما سبق ذكره فإن الباحث قد توصل إلى عدة نتائج وتوصيات، وهي كالآتي:

النتائج:

١-أن الدعوة إلى الله تشمل جميع الناس على اختلاف أجناسهم وأعراقهم وأديانهم، والمنافقون مع أنهم في الدرك الأسفل من النار لعظم انحرافهم إلا أن الدعوة تشملهم.

٢-(باب التوبة مفتوح) شعار كل داعية مع مدعويه، لأن له الأثر الجميل وفيه رفع للمعنويات وإبقاء للأمل لكلا الطرفين؛ فالداعية لا ييأس من دعوته والمدعو لا يقنط من رحمة الله.

٣-أن أثر المنافقين في الصد عن سبيل الله كبير فهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، فكان لزاماً على الدعاة إلى الله التصدي لهم وتحذير الناس منهم وبيان خطرهم.

٤-إبراز المنهج القرآني في طريقة التعامل مع المنافقين وأن الله قد أبان الموقف منهم وذكر حكمهم.

٥-أن من الحكمة في عدم ذكر أسماء المنافقين وفضحهم مع شدة خطرهم هو تربية الدعاة إلى توجيه الناس أن لا ينتظروا منهم ذكر أسماء المنافقين حتى لا ينحصر الشر فيهم، بل يحرص على ذكر أوصافهم حتى يستمر فضحهم في كل زمان ومكان.

التوصيات:

١-الاهتمام بدراسة كتب التفسير دراسة دعوية والجمع بين التفاسير المتقدمة والمتأخرة لتكوين الأصالة والمعاصرة وحتى يكون هناك رجوع إلى المصدر الأصلي من مصادر الدعوة وهو كتاب الله سبحانه.

٢-التوصية بدراسة فقه الدعوة المتعلق بالمنافق من خلال كتب السنة والسيرة النبوية حتى يكون هناك ربط بين الكتاب والسنة في كيفية التعامل مع هذا الصنف من المدعوين.

٣-إقامة الدورات العلمية والتدريبية للدعاة لتدريبهم على معرفة أحوال المدعوين، وأن أساليب الدعوة تختلف باختلاف المدعوين.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم
٢. استنباطات الشيخ عبد الرحمن السعدي من القرآن الكريم عرض ودراسة: رسالة دكتوراه في القرآن الكريم وعلومه –كلية أصول الدين– جامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية، الرياض، إشراف د أحمد سعد محمد الخطيب، دار ابن حزم، ط١، ١٤٣٧هـ.
٣. التفسير الكبير، الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت:٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.
٤. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، الزحيلي، وهبة بن مصطفى (ت:١٤٣٦هـ)، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤١١هـ.
٥. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله (ت:١٣٧٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.
٦. جامع العلوم والحكم، ابن رجب، زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين الحنبلي (ت:٧٩٥ هـ)، تحقيق: الدكتور ماهر ياسين الفحل، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤٢٩هـ.
٧. الزنادقة عقائدهم وفرقهم وموقف أئمة المسلمين منهم: العريفي، سعد فلاح عبدالعزيز، دار التوحيد، الرياض، ط١، ١٤٣٤هـ.
٨. الزهد: الرؤاسي، أبو سفيان وكيع بن الجراح بن عبيد بن رؤاس (ت:١٩٧هـ)، تحقيق: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ط١، ١٤٠٤هـ.
٩. سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني (ت:٢٧٥هـ)، تحقيق: فيصل عيسى البابي الحلبي، مراجعة: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، بيروت.

١٠. سنن النسائي (المجتبى من السنن الكبرى)، أحمد بن شعيب النسائي (ت:٣٠٣هـ)، مراجعة: عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، ، حلب، ١٤٠٦هـ
١١. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري (ت:٢٥٦هـ)، مراجعة: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، ١٤٠٧هـ.
١٢. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت:٢٦١هـ)، مراجعة: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٤هـ.
١٣. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، العيني، بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد العينى (ت:٨٥٥ هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٤. فتح الباري: ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، (ت:٨٥٢ هـ)، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.
١٥. فتح الباري: ابن رجب، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (ت ٧٩٥ هـ)، تحقيق: محمود بن شعبان ومجموعة من العلماء، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية، ط١، ١٤١٧هـ.
١٦. فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي، زين الدين محمد بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي القاهري (ت:١٠٣١هـ)، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١، ١٣٥٦هـ.
١٧. لسان العرب، لابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الإفريقى (ت:٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.
١٨. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحراني (ت:٧٢٨هـ)، جمع وترتيب: عبد

الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٤٢٥هـ.

١٩. مدارج السالكين: ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين (ت:٧٥١هـ)، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، تخريج: سراج منير محمد منير، دار عطاءات العلم، الرياض، ط٢، ١٤٤١هـ.

٢٠. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري (ت: ٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ.

References :

1. alquran alkarim
2. astinbatat alshaykh eabd alrahman alsaedi min alquran alkarim earad wadirasatu: risalat dukturah fi alquran alkarim waeulumih -kuliyat 'usul aldiyn- jamieat al'iimam muhamad bin maseud al'iislamiati, alrayad, 'iishraf d 'ahmad saed muhamad alkhatib, dar aibn hazma, ta1, 1437h.
3. altafsir alkabiru, alraazi, 'abu eabd allah muhamad bin eumar bin alhasan bin alhusayn altaymiu almulaqab bifakhr aldiyn alraazii khatib alrayi (t:606h), dar 'iihya' alturath alearabi, bayrut, ta3, 1420h.
4. altafsir almunir fi aleaqidat walsharieat walmanhaji, alzuhayli, wahbat bin mustafaa (t:1436ha), dar alfikri, dimashqa, ta1, 1411hi.
5. taysir alkarim alrahman fi tafsir kalam almanani, alsaedi, eabd alrahman bin nasir bin eabd allah (t:1376hi), tahqiqu: eabd alrahman bin maeala alllwayahaqi, muasasat alrisalati, bayrut, ta1, 1420h.
6. jamie aleulum walhakmi, abn rajaba, zayn aldiyn 'abu alfaraj eabd alrahman bin shihab aldiyn alhanbalii (t:795 ha), tahqiqu: alduktur mahir yasin alfahla, dar abn kathir, dimashqa, ta1, 1429hi.
7. alzanadiqat eaqayiduhum wafaraquhum wamawqif 'ayimat almuslimin minhum: alearifi, saed falah eabdialeaziza, dar altawhidi, alrayad, ta1, 1434h.
8. alzuhdi: alruwaasi, 'abu sufyan wakie bin aljaraah bin eubayd bin ruaas (t:197h), tahqiqu: eabd alrahman eabd aljabaar alfiryawayiyi, maktabat aldaari, almadinat almunawarati, ta1, 1404h.
9. sunan abn majah, muhamad bn yazid alqizwini (t:275hi), tahqiqa: faysil eisaa albabi alhalbi, murajaeata: muhamad fuad eabd albaqi, dar 'iihya' alkutub alearabiati, bayrut.
10. sunan alnasayiyu (almujtabaa min alsunan alkubraa) ، 'ahmad bin shueayb alnasayiyu (t:303hi), murajaeatu: eabdalfataah 'abu ghudati, maktab almatbueat al'iislamiati, , halba, 1406h

11. sahih albukhari, muhamad bin 'iismaeil albukharii (t:256ha), murajaeata: du. mustafaa dib albugha, dar abn kathir, birut, 1407hi.
12. sahih muslamin, muslim bin alhajaaj alqushayrii alnaysaburiu (t:261h), murajaeata: muhamad fuaad eabd albaqi, dar 'iihya' alturath alearabi, bayrut, 1374h.
13. eumdat alqariy sharh sahih albukhari, aleayni, badr aldiyn 'abu muhamad mahmud bin 'ahmad aleaynaa (t:855 hu), dar 'iihya' alturath alearabi, bayrut.
14. fath albari: abn hajara, 'ahmad bin ealii aleasqalani, (t:852 ha), tahqiqu: muhibi aldiyn alkhatibi, dar almaerifati, bayrut, 1379hi.
15. fath albari: abn rajaba, zayn aldiyn eabd alrahman bin 'ahmad bin rajab bin alhasani, albaghdadii, thuma aldimashqi, alhanbalii (t 795 ha), tahqiqu: mahmud bin shaeban wamajmueat min aleulama'i, maktabat alghuraba' al'athariati, almadinat alnabawiati, ta1, 1417h.
16. fid alqadir sharh aljamie alsaghira, almanawi, zayn aldiyn muhamad bin taj alearifin bin eali bin zayn aleabidin alhadaadii alqahirii (t:1031h), almaktabat altijariat alkubraa, masr, ta1, 1356h.
17. lsan alearbi, liaibn manzuri, muhamad bin makram bin ealaa ،'abu alfadali, jamal aldiyn al'ansari al'iifriqaa (t:711h), dar sadir, bayrut, ta3, 1414h.
18. majmue alfatawaa, aibn taymiatin, taqi aldiyn 'abu aleabaas 'ahmad bin eabd alhalim bin eabd alsalam alnumayri alharaani (t:728h), jame watartiba: eabd alrahman bin muhamad bin qasimi, majmae almalik fahd litibaeat almushaf alsharif, almadinat almunawarati, 1425h.
19. mdarij alsaalikin: abn qiam aljawziati, muhamad bin 'abi bakr bin 'ayuwb bin saed shams aldiyn (t:751ha), tahqiqu: muhamad 'ajmal al'iislahi, takhriju: siraj munir muhamad munir, dar eata'at aleilmi, alrayad, ta2, 1441hi.
20. alnihayat fi gharayb alhadith wal'athra, aibn al'athir, majd aldiyn 'abu alsaeadat almubarak bin muhamad bin muhamad bin muhamad aibn eabd alkarim alshaybanii aljazarii (t: 606hi), tahqiqu: tahir 'ahmad alzaawaa wamahmud muhamad altanahi, almaktabat aleilmiata, bayrut, 1399h.